ملامح الحياة الاجتماعية من خلال كتب الرحالة المسلمين

(ابن بطوطة نموذجاً)

Features of Social Life through the Books of Muslim Travelers (the Example of Ibn Battuta)

通过穆斯林旅行者的书籍了解社会生活的特征（以伊本·白图泰为例）

د /مهند نايف مصطفى الدعجة

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ –كلية الآداب– جامعه اليرموك–الأردن

Mohannad nayef aldaajeh (Ph.D.), Aassistant Professor at Yrmouk University.

Mohannad.aldaajeh@yu.edu.jo

تاريخ تسلُّم البحث : ٢٠٢٤/٥/٧

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٤/٥/٢٢

الملخص:

تمثل كتب الرّحلات أهميّة بالغة لاتقل عن نظرائها من المصادر التاريخية المتنوعة في كافة الحقول المعرفية وعبر الأزمنة المختلفة. كما أنّ كتب الرحلات تميزت بانفرادها بجوانب كبيرة مما لا نجده في باقي المصادر. كيف لا وهي تمثل النّمط الحيّ لنقل وقائع أحداث مباشرة لشهود عيان، كرحّالتنا الشهير ابن بطوطة، والذي غامر برحلة طويلة شملت إفريقيا، وآسيا، ومناطق ساحلية وبريّة متعددّة. التقى خلالها بقبائل وشعوب ذات ثقافات متنوّعة فأثّر وتأثر بهم، والمهمّ أنّه نقل أخبارهم وأحوالهم ليرسم ملامح لصور الحياة الاجتماعية؛ فجاء وصفه غاية في الدّقة والاتقان، وسدّ النّقص التّام الذي غفلت عنه الكثير من المصادر. وعليه، فقد حوى هذا البحث جملة من العناوين المهمّة؛ كالحديث عن النساء في مختلف الأماكن، والحديث عن عاداتهن ولباسهن وبيوعهن وتجارتهن ومواكب الاحتفالات، والزّواج والمهور والجواري، وقارن ذلك بمشاهداته وبتجاربة الخاصة بالزواج من تلك المناطق، ليقدّم مادة حَوَت الكثير من الجوانب المضيئة التي تبرز أهمية المرأة المسلمة وكرامتها وعزها، مقارنة بما شاهد ولاحظ عند غير المسلمين، ولأهميّة الموضوع فقد تمّ الاستعانة بكتب الرّحلات الأخرى وبمصادر تاريخيّة وجغرافيّة لسدّ النّقص الذي وُجد في بعض جوانب رحلة ابن بطوطة.

الكلمات الدالَّة: (رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة والنساء، الزواج في رحلة ابن بطوطة)

Summary:

Travel books represent great importance no less than their counterparts from various historical sources in all fields of knowledge and across different times. Travel books are also distinguished by their uniqueness in large aspects that we do not find in the rest of the sources. How could they not represent the living style of conveying the facts of direct events to eyewitnesses like our famous traveler Ibn Battuta, who ventured on a long journey that included Africa, Asia, and various coastal and land regions, during which he met tribes and peoples with diverse cultures and influenced and was influenced by them. What is important is that he conveyed to us their news and conditions in order to draw the features of pictures of social life. He came up with a recipe of the utmost precision and mastery, filling in the complete deficiency of what many had overlooked. Sources, and therefore this research included a number of important titles, such as talking about women in various places, their customs, their dress, their sales, their trade, celebration processions, marriage, dowries, and slave girls, and he compared that with his observations and his own experiences of marriage from those regions, to present material containing many bright aspects that highlight the importance and dignity of Muslim women. Its glory is compared to what was seen and observed by non-Muslims, and due to the importance of the topic, other travel books and historical and geographical sources were used to fill the shortcomings that may arise in some aspects of Ibn Battuta's journey.

Keywords: Ibn Battuta's journey, Ibn Battuta and women, marriage in Ibn Battuta's journey.

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة على نينا مُحَمَّد وعلى آلة وصحبه وسلم، وبعد:

فتأتي أهمية دراسة كتب الرحلات كواحد من المصادر المهمة في دراسة أحوال وأنماط الحياة الاجتماعية لمجتمع الدراسة، إذ إن كتب الرحلات تمثل ذلك الشاهد على تلك الأحداث وتقلباتها، واختلافها من بيئة لأخرى لتغنى الباحث عن عناء السؤال من المصادر الأخرى ,التي ركزت في معظمها على الأحداث السياسية وتبدلاتها عبر الفترات التاريخية المتعاقبة ، فلم تلق الضوء على أدق التفاصيل لبيان أحوال المجتمع بعامة والمرأة بخاصة ، وهذا ما تفرد به رحالتنا(ابن بطوطة) وتميز عن غيره بتقديم مادة علمية غنية أتاحت الفرصة للبحث والتقصي والمقارنة والاستنتاج.

أهمية البحث:

تمثل رحلة ابن بطوطة واحدة من أشهر كتب الرحلات، الغنية بوصفها لأدق التفاصيل لخط سير رحلته المحفوف بالمخاطر حينا والسلامة حينا آخر، فقد جمع ابن بطوطة في رحلته مادة ثرية عن أنماط اجتماعية وعادات وتقاليد

قل نظراؤها، وقارن ذلك بنساء الأقاليم المتنوعة التي زارها بأسلوب واضح وبسيط، مكن من التعرف على تلك التطورات والإفادة منها بعد مقارنتها بنظرائها بقالب علمي رصين.

أهداف البحث:

يهدف البحث الى كشف اللثام عن الغموض الذي اعترى أحوال النساء في مناطق متعددة، سواء ما كان يرتبط بالنساء وأصولهن، وزواجهن، ومهورهن، وزيهن وحليهن، وأعمالهن، ومشاركاتهن السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية، لإعطاء صورة واضحة المعالم عن المرأة المسلمة ومالها من حقوق وعليها من واجبات، مقارنة بأحوال النساء غير المسلمات في خط سير رحالتنا ابن بطوطة.

مصطلحات البحث:

ورد في البحث بعض المصطلحات الخاصة بفئة معينة من المجتمعات؛ حيث تم توضيحها في حواشي البحث، كأسماء بعض الأماكن التي بادت واندثرت او أسماء بعض الشخصيات من النساء والملوك، وأيضا بعض المصطلحات اللغوية الخاصة بمجتمع دون الآخر.

منهج البحث وأدواته وحدوده:

اعتمد البحث على جلب المادة العلمية الأولية مما حوته رحلة ابن بطوطة، وتصنيفها وتبويبها وفقا لمحتوى النص، وإخراجها بقوالب الأبواب والمباحث. ثم بدأت عملية الشروع في جلب ما تشابه أو تضاد مع تلك المرويات من مصادر معاصرة (لابن بطوطة) لتلك الأحداث أو قريبة منها، وكذلك جلب مرويات رحالة آخر كناصر خسروا وابن جبير وغيرهم ممن أكد صدق رواية ابن بطوطة أو عارضها، أو تحدث عن تطورات معيشية ناجمة عن تبدلات سياسية أو اقتصادية. الأمر الذي أتاح الفرصة للتحليل والتعليل والربط والمقارنة بين تلك الأخبار لتقديم وصف عام وشامل-قد الإمكان – والجدير بالذكر أنه ووفقا لتعليمات النشر فقد تم كتابة الاستشهادات المرجعية وفقاً لنظام APA (اسم المؤلف والسنة).

الإطار النظري للبحث:

يمثل الإطار النظري المرتكز الأهم في هذا البحث، من خلال الإجابة على مجموعة كبيرة من الأسئلة والاستفسارات. فمن هن نساء الأقاليم التي تحدث عنها ابن بطوطة؟ ما أنسابهن؟ وما طبيعة أحوالهم المعيشية؟ وكيف تعاملن مع ابن بطوطة؟ وهل شاهد الجواري والإماء والعبيد؟ وكيف وصفهن؟ وأخيرا هل لابن بطوطة تجارب بالزواج من النساء في أكثر من إقليم؟

إجراءات البحث:

سيحاول البحث بداية التعريف بابن بطوطة والإطار العام الذي كانت عليه الدول الإسلامية في عهده، مرورا بخط سير رحلته، ومشاهداته وتدوين رحلته، ثم مقارنة ما تم جمعة بمصادر المعرفة المتنوعة، في محاولة الوصول إلى نتائج تفيد الباحث والدارسين.

أولا :التّعريف بابن بطوطة:

الرّحالة المشهور أبو عبد الله اللواتي الطّنجي مُحَمَّد بن عبد الله (٧٠٣ – ٧٧٩ هـ = ١٣٠٤ – ١٣٧٧ م) ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى. وخرج سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٥م مرتحلًا في رحلته المشهورة(انظر ملحق ١ خارطة رحلة ابن بطوطة)، بخطّ سير يمتدّ من القارّة الإفريقيّة عبر المغرب إلى مصر، وفي القارّة الآسيوية ليشمل بلاد الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية امتدادًا لبلاد الهند والصين. أفاد في تقديم وصفٍ دقيقٍ ورائعٍ كشاهد عيان، لأحداث وشواهد تضمنت أعرافًا وعاداتٍ وتقاليدَ ومشاهداتٍ في حِلّه وترحاله بين ممالك ودول وإمارات، ونظم اقتصادية وغرائب كثيرة. ثم قفل عائدًا إلى المغرب الأقصى، فأقام لدى ملوك بني مرين(سلالة بربية أمازيغية تولت الحكم في المغرب ٦٤١هـ – ٨٦٩هـ/ ١٢٤٤-١٤٦٥م م، وكانت عاصمتها مدينة فاس.(للمزيد انظر ابن خلدون , ١٩٨٨ م,٤/٢٢٠). ليدوّن أخبار رحلته على كاتبه المعروف مُحَمَّد بن جزي الكلبي(ابن جزي ,٢٠٠٢م,٦/٢٥٣) بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـ –الذي كان يحسن التركية والفارسية–. ووسم رحلته ب "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ". واستغرقت رحلته نحو ٢٧ سنة، ومات في مراكش. وتُلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين Prince of Muslims travelers. وفي نابلس (بفلسطين) أسرة تدعى (بيت بطبوط) وتعرف ببيت المغربي وبيت كمال، يقال إنها من نسل ابن بطوطة. (الزركلي ,٦/٢٥٣) وقد قيل في رحلة رحّالتنا أقاويل منها: أن رحلة ابن بطوطة مملوءة بالأكاذيب والغرائب التي لا يصدّقها عاقل(البنعلي ,١٩٩٥م,١/١٣٨).

ومما لاشكّ فيه أنّ هذه الرّحلة تنفرد بمعارف وأخبار في شتّى الميادين، وتمثل مادة أصيلة يمكن الاستفادة منها ومما تحويه من كافّة حقول المعرفة، لمناطق تتقاطع مع العالم الإسلامي في اللّغة والعادات والأعراف وتختلف تارة أخرى في مميزاتها الخاصة لاسيما الجوانب الاجتماعية، والنظرة الى المرأة وكيفية التعامل معها.

ثانيا :مقدّمة في ملامح التصور الإيجابي للحياة الاجتماعية:

بدا واضحًا خلال تتبع مسار رحلة ابن بطوطة أنها تحوي في ثناياها مجموعة من المظاهر الاجتماعية الإيجابية المستحسنة والموافقة للشرع الاسلامي حينًا، ونقيض ذلك تمامًا حينًا آخر. ولعلّ الملفت للنظر مشاهداته لواقع حال النّساء بأنهن بارعات الحسن والجمال، وأنهنّ شديدات الاهتمام بالمظهر الخارجي. ومن ذلك التطيّب والتعطّر بأجود أنواع العطور وأنفسها، وهذا ما لاحظه في وصف نساء مكّة، اللاتي يعملن بأعمال مختلفة ومضنية لقاء شراء الطيب الذي يترك عبقًا جميلًا فواحًا حيثما يطفن.(ابن بطوطة , ١٩٨٥م,١/٩٢) ويبدو أنّ المنافسة بين النّساء شديدة في ذلك، وهذا التّطيّب كان معروفًا ومنتشرًا وواضحًا في مكّة للرّجال والنّساء على حدّ سواء (ابن

المجاور ,١٩٥١م/٩). ويعبّر عن منافسة شديدة كوسيلة للمفاخرة وللتّجمّل. علاوة على اشتهار بعض نساء الديلم بحسن المشاركة في التدبير والحزم والأصالة بالرأي بعزم واقتدار(الروذرائي , ١٩١٦م ,٨٥/٣)

وقد برّر بعض الجغرافيين أهميّة التعطّر للمرأة (في بعض أقاليم اليمن) من قبيل لفت انتباه الرّجال لهنّ. ابن (المجاور، ص٨٥-٨٦.) خاصّة لمن وُصفن بأنّهن خلقات رخوات التكّ(وهي تكة السراويل، وجمعها تكك، والتكة رباط السراويل. ابن منظور,١٩٨٨م ، ج٦، ص ٤٣٨.) وفي أصواتهن وضوح للغنج؛ محاولة لجذب الانتباه إليهن والتّقرّب منهن. كما تطابق ذلك مع ما وُصفت به نساء صنعاء اليمن من حسن وجمال واضح مقترنٌ بالكرم ودماثة الأخلاق (ابن بطوطة، ج١، ص١٥٦.). وكذلك الحال مع بعض نساء مدينة المسلب اليمنية ، والتي شبه نساءها مجازًا باسم مدينتهم وبأنهن يسلبن القلوب لحسن جمالهن ولباقتهن (ابن المجاور، ص٢٤٦).

كما أنّه استحسن وبدهشةٍ وغرابةٍ ما فعلته إيت كججك ابنة السلطان أوزبك، في حضور زوجها السّيد الشّريف ابن عبد الحميد، حيث حظي باستقباله عندها جمعٌ من العلماء والقضاة، والطّلبة وعامّة الناس. وقد أحفّته بالعناية والمكرمة فوصفها بالأخلاق الحسنة والعلم والمعرفة بما تتفوق عليه من نظرائها في نساء عصرها(العاملي، ١٣١٢ هـ,١٩/١.).

وجد ابن بطوطة أنّ مسألة عمل المرأة وضَنكها تختلف من إقليم لآخر بحسب المستوى المعيشيّ. ومن أمثلة ذلك؛ أنّ نساء البربر من صنهاجة كانت تُعرف بالجَلَد في أعمالهن اليوميّة(ابن حوقل، ص٩٩). واسترسل ابن بطوطة مليًا، وتجرأ في وصف نساء (جب الفيران) وهي قلعة ببلاد الصين، وُصفت نساؤها بالجمال والحسن في الحواجب والأنوف، وباللّذة في الخلوة والخبرة والدراية بطرق الجماع(ابن بطوطة، ج٢، ص ١٠٦).

كما أبدى ابن بطوطة دهشته عندما شاهد ما يقارب الألفين امرأة من نساء شيراز (مدينة فارس العظمى وهي مدينة جليلة عظيمة ينزلها الولاة، ولها سعة حتى أنه ليس لها منزل إلا وفيه لصاحبه بستان، فيه جميع الثمار والرياحين والبقول وكل ما يكون في البساتين، وشرب أهلها من عيون تجري في أنهار تأتي من جبال يسقط عليها الثلج.(اليعقوبي , ١٤٢٢هـ.٢٠٣/١.)

)وبأيديهن المراوح للتخفيف من شدّة الحرارة، مجتمعات لتلقي دروس الإرشاد والوعظ لثلاثة أيام في الأسبوع في جامعهم الأعظم، وقد كنّ بلباس محتشم، متبرقعات ملتحفات، ويلبسن الخف للسّتر وعدم الكشف(ابن بطوطة، ج١، ص ١٢٨). وكذلك الحال لبعض أقاليم المشرق الإسلامي فلا نظير لنساء فرغانة(ناحية مشتملة على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، متاخمة لبلاد الترك. أهلها من أتم الناس أمانة وديانة على مذهب أبي حنيفة، وأحسن الناس صورة! كانت ذات خيرات وغلات وثمرات، وخربت في محاربة خوارزمشاه مُحَمَّد، وفارقها أهلها قبل خروج التتر إلى ما وراء النهر وخراسان. وكان من عاداتهم قطع الآذان حزناً على موت الأكابر.(القزويني ,٢٣٥/١)

والشاش(مدينة جليلة تابعة لسمرقند وقصبتها بنكث ، وله مدن كثيرة، ويتصل ببلاد الشاش بلد إيلاق، وهما جميعاً لا فصل بينهما، عمارتهما متصلة متكاثفة لا تنقطع،في أرض مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومتنزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية الترك، ولأهلها سطوة ومنعة.

الحِميرى , ١٩٨٠ م,١/٣٣٥.)(المقدسي، (ت ٣٨٠هـ)، ٢٥٨.) وأجمل وأبيض نساء الهند هن نساء مملكة الطافق (التاجر, ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٤٦. ابن خرداذبة، ١٤٠٨هـ\ ١٩٨٨م، ، ص٧٠.).

وفي نمطية الأخلاق ما يدعو إلى الاستغراب حينًا والتّعجّب حينًا آخر، ومردّ ذلك إلى التّبعية الدينية والأنماط المعيشيّة، ومن صفات وإرهاصات مرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بعادات وتقاليد تلك الأقاليم. فقد لاحظ ابن بطوطة وغيره من الرّحالة بعض الصفات الأخلاقية وأظهر استنكارًا لها في بعض الأحيان. ومنها ما قيل إن بعض المناطق المصرية تتصف نساؤها بالفجور وبوجود زوجين للمرأة الواحدة(المقدسي، ص ١٦٧). ومن المؤكد أن هذا الأمر لا ينطبق على نساء المسلمين. كما لوحظ أن نساء الصين مكشوفات الشعر الطويل(التاجر، ص٥٤). والزِّنا كان متاحًا في بعض أقاليم الهند(ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٦٦.) لكن في المقابل يمكنك أن ترى سمات المجتمع الإسلامي تتنافى مع تلك الممارسات السلبية فنساء البصرة لهن محاسن في خلقتهن وأخلاقهن(ابن حوقل، ص ٨١).

فها هي طيطغلي خاتون زوجة السّلطان أوزبك الكبرى، كانت الأوفر حظًا لدى السلطان لتوافق طباعهما معا، وكانت هذه الملكة تتصف برجاحة العقل والأدب وحسن التدبير بشكل يلفت النظر أمام الرجال والنقاد. وقد ملكت عقل ملكها زوجها الذي قربها واتخذها مستشارة ومعينة له في سداد رأيها. خاصة أنها اهتمت أيضا بعمارة الأوقاف الكثيرة كالمستشفيات، والمدارس، والمساجد(العاملي ,١/٣٧٧) .

لذلك سيكون الاهتمام بدراسة مقارنة بين المرأة في الإسلام والمرأة في المجتمعات الأخرى. من خلال ما يتوفر من معلومات تثري البحث، وتعين على إجراء المقارنة المتاحة في الأقاليم التي زارها ابن بطوطة، أو سمع عنها، أو نمت إليه.

ثالثا: الارتباط المقدس (الزّواج):

اعتبر الزواج من الأسس المهمة في بناء الأسرة في النظام الاجتماعي عند العرب، فقد اهتموا باختيار الزوجة وفق معايير تتوافق وتنسجم مع معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وكعرض لأحوال متتابعة مستمرة في الخطبة، كانت العادات تقتضي بأن تقوم إحدى قريبات الخاطب بالبحث عن فتاة لابنها، أو أخيها، أو أحد أقاربها لتختار له فتاة المستقبل. وهذا الأمر قديمٌ متجددٌ إلى حد ما. فمن العادات أنّه متى بلغ الشاب سن (٢٠-٣٠) عاما، يقوم عميد أسرته أو ربُّ عائلته بإرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران، إلى بيوت المدينة يبحثن وينقبن عن زوجة لذلك الشاب. وتكون قاعدتهم في خطبيهم غالباً الكفاءة من جهة الثّروة والسّن والآداب. ولا يزلن يوالين بحثهن عاماً كاملاً على العقل، ومتى قرّ قرارهن على إحدى البنات يكررن التردد إلى دارها مرات عديدة؛ ليرينها بجميع مظاهرها، يرينها في زينتها وفي وقت الغسيل، ووقت الطبخ، وتنظيف المنزل. وعادة البيوت التي يكون بها بنات في سن الزواج (١٥-

٢٠) أن يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخاطبات فيتأمل الخاطبات مشيتها، ونقل أقدامها، وأدبها في تقديم القهوة في الإياب والذهاب، ويخاطبنها فيرين غنّة كلامها وفصاحتها. ومتى أصبح الأمر تقريباً واقعاً يذهبن إلى الحمام معاً ويرين جسمها، ويشممن أذنيها وفمها وتحت إبطها ورائحة عرقها وثيابها، وينقلن ذلك إلى الخاطب وعميد الأسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وطولها وغير ذلك. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب. أما وظيفة النّساء قريبات الفتاة المخطوبة، فيزرن الحيَّ القاطن فيه سراً، ويرسلن من يثقن به من أقربائهن وأزواجهن فيدخلن ويدخلون غالب بيوت ذلك الحيّ باحثات وباحثين عن أخلاق الخاطب وثروته وتجارته أو وظيفته، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة في الهيأة الاجتماعية. ويجري التقصي عن آداب بيت الخاطب وأصوله، ويذهبن بالمخطوبة سراً إلى مقرِّ الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه فإذا راق الخاطب في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة. وهنا تنتهي مهمة النساء، ثم يتألف شبه وفد من عميد أسرة الخاطب، والبعض من معارف عميد بيت المخطوبة، إلى دار ذلك العميد، ويطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب، بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر في المجتمع، ويكون الأمر مقضياً على الأغلب(كُرْد, ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.٦/٢٧٧.).

((وقد كان السائد في صفة نكاح أهل ذمار (مدينة ببلاد اليمن، على مرحلة منها آثار عمارة قديمة، وأهل تلك البلاد متفقون على أنها عرش بلقيس.(القزويني , ١/٣٩.) ، أنّه إذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيد لعمرو أريد أن أشاهد جمال كريمتك، فيقول له عمرو: أقدم إلى السوق الفلاني فإنها تتوعد به، شاهدها في بيعها وشراها، وجمالها. فيقدم زيد إلى السوق الذي دلَّه عمرو عليه فيقعد على قارعة الطريق. فتقبل خطيبته وعلى ظهرها كارة (بضاعة) تحط في السوق فتبيع ما معها وتشتري حوائجها. وترفع كارتها على ظهرها. ويرجع خطيبها ورآها تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل والوعر، وهذا كلّه ولم تحط الكارة عن ظهرها ولم تسترح. فإذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على شيل الثقيل، فعند ذلك يملُّك (يتزوج) بها ويدخل عليها وتبقى على شغلها إلى الممات)) (ابن المجاور، ص١٩١-١٩٢.).

وكان البعض يستعين بالخطّابة أو الدلالة(ابن الجوزي، ١٩٥٢م ، ص ٦٣٢، ابن الجوزي ,١٩٥٢م، ج٨، ق١، ص١٧٥.). فروى أن دلالة وصفت لرجل إحدى النّسوة من خلال التلاعب بالكلمات والمحسّنات البديعيّة، واصفة إياها بطاقة النرجس. ويبدو أن هذه الحيلة قد انطوت على الرجل الذي وافق على الزّواج، ليكتشف بعدها أنّه وقع في الفخ؛ فساقها خضراء، وشائبة الشعر، ومصفرة الوجه (ابن الجوزي, ١٩٨٠م، ٢٢٥.). وقد تكون الدّلالة حصلت على مبلغ من المال من تلك العجوز لقاء تسويق زواجها.

وقد شاع قديما وحديثا أن يتزوج الرجل من ابنة عمّه(البغدادي, ١٩٩٧م، ٣/ ١٧٨؛ ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ \١٢٠٠م,٢/ ٢٩٩) ، أو من عشيرته فمن عادة أهل جرجان أن لا يزوجوا إلى غيرهم. وظهر هذا جليًّا من خلال تعجب المقدسي من مطاردة رجل وبيديه سيف لصبية بشكل مريع محاولًا قتلها، ولا دافع له إلّا أنّها

تزوجت من غير قبيلتها، وبالتالي استباح قتلها(التنوخي، ١٩٧٨، ٤/ ٣١٥، الحموي، ١٩٩٣، ٥/ ٣٠٢.).وفقًا للعادات والتقاليد المعمول بها لديهم، والتي قد تعني المساس بالشرف .

وعكس ذلك تمامًا نجد أن الزواج محرم بين قبائل الطوطم الواحدة، ويجنحون إلى الزواج من قبائل أجنبية عنهم . إذ يرون ضرارا بالغا في تلك الزيجات، وهلاك لعشيرتهم؛ لذلك يتزوجون من أسر أجنبية أخرى. ومن يخالف ذلك سيلقى حتفه(جواد , ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م,٢/١٦٩).

وفي ذات السياق، هناك من يرى أنّ هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية – الأسرة التي يحكمها الوالد – ضربة قاضية على منزلة المرأة؛ فقد باتت هي وأبناؤها–في أوجه الحياة المهمّة جميعاً– ملكاً لأبيها أو لأخيها الأكبر، ثم ملكاً لزوجها. كما لو أنّها اشتُريت في الزواج كما كان العبد يشترى في الأسواق سواء بسواء؛ وهبطت ميراثاً كما يهبط سائر الملك عند وفاة الزوج. وفي بعض البلاد "مثل غانة الجديدة، وهبريز الجديدة، وجزر سليمان، وفيجي، والهند وغيرها " كانت تشنق وتدفن مع زوجها الميت، أو كان يطلب إليها أن تنتحر، لكي تقوم على خدمته في الحياة الآخرة. ونجد أنّ للوالد الحق في أن يعامل زوجاته وبناته كما يشاء ويهوى إلى حد كبير جداً؛ فيهبهن، ويبيعهن، ويعيرهن. ولا يحدّه في استعمال حقّه هذا إلا الظروف الاجتماعية التي تفسح المجال لآباء غيره في استعمال حقوق مثل حقه. وبينما احتفظ الرجل بحقه في الاتصال الجنسي خارج داره، طولبت المرأة – في ظل الأنظمة الأبوية – بالعفّة التامة قبل الزواج، وبالإخلاص التّام بعد الزواج، وهكذا نشأ لكلّ جنس معيار خاص يحكم به. إن خضوع المرأة بصفة عامة– وقد كان موجوداً في مرحلة الصيد، ثم ظل موجوداً في صورة أخف – خلال الفترة التي ساد فيها حق الأمومة في الأسرة ازداد الآن صراحة وغلظة؛ ففي روسيا القديمة، كان الوالد عند زواج ابنته يضربها ضرباً رقيقًا بسوط، ثم يعطي السوط للزوج ليدل على أن ضربها قد أنيط به منذ زواجهم. وحتى الهنود الأمريكيون الذين ظل حق الأمومة سائداً فيهم كانوا يعاملون نساءهم معاملة خشنة، ويكلفونهن بأقذر الأعمال، وغالباً ما ينادونهن بلفظ الكلاب. حياة المرأة في كلّ مكان على وجه الأرض كانت تقوم بثمن أرخص من ثمن الرّجل، وإذا ولد الأمهات بناتًا، فلا تقام الأفراح التي تقام عند ولادة البنين حتى إنّ الأمهات أحياناً ليقتلن بناتهن الوليدات ليخلصنهن من الشّقاء. والزوجات في فيجي يشتريهن الرّجال كما يشاؤون، وغالباً ما يكون الثمن المدفوع بندقية. وفي بعض القبائل لا ينام الرجل وزوجته في مكان واحد خشية أن يضعف نفس المرأة من قوة الرجل، بل إن أهل فيجي لا يرون من المناسب أن ينام الرجل في بيته كل ليلة. وفي كالدونيا الجديدة تنام المرأة في حظيرة بينما ينام الرجل في الدار، وفي فيجي كذلك يسمح للكلاب بالدخول في بعض المعابد، أما النساء فحرام عليهن دخول المعابد إطلاقاً(وِل ديورَانت،, ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م,١/٦٣.) وهذا الإقصاء للمرأة عن المجتمعات الدينية غير موجود في الإسلام. ويؤكد ذلك بعض الأعمال الخشنة التي تتصف بها النساء، فنساء بلاد طوالسي من بلاد الصين يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء(ابن بطوطة، ٢/١٥٧.).

وقد ظهر دور السّوق الاقتصادي الاجتماعي في بعض سلوكيات مناطق نجد وتهامة والبوادي، حيث إن بعضهم كان يحرم ابنته من الميراث. ومما لوحظ أنهم يعرضون بناتهم البكر في الأسواق ويجهزوهن من نفقاتهم الشخصية، وأن مقياس العصبية القبلية وكبر حجم وقوة القبيلة هو الذي يحدد الطلب على تلك الفتاة، أو يبخس فيها إن قلّت وضعفت عشيرتها. فوصف الحال لبعض نسائهم بأنها تتزين وتركب الهودج لتصل إلى السوق ويتولى أحدهم

عرضها لمن يرغب بالزّواج منها. وحال توفر الخاطب يصبح بتفويض من أبيها، أو أخيها، أو من يرافقها من أرحامها فيصبح الخطيب وكيلًا عليها. فإن لم ترق له، أصبح وكيلًا في تزويجها لرجل آخر دون الحاجة للرجوع لأبيها أو ولي أمرها. وإذا ما تمّ الزّواج يتمّ زيارتها من الجارات مهنئات ومعهن (نقوط)خبز أو زبيب أو سويق؛ وهكذا يصبح لديها كمٌّ وافرٌ من هذه الجراب تكفي حاجتها لما يزيد على شهر(ابن المجاور، ٢٢٩-٢٣١.). وهذا من الأعراف والعادات الموجودة حتى يومنا هذا السائدة، والمعروف بنقوط العروس، ولا يقتصر على سكان الجزيرة العربية بل إن أغلب سكان الصين والهند إذا أرادوا الزواج بينهم يبدؤون بالتهنئة ثم الهدية ثم الإشهار(التاجر، ٥٧.).

وكان من شروط الموافقة على الزوج في سرنديب(جزيرة في بحر هركند بأقصى بلاد الصين؛ لها ثلاثة ملوك كل واحد عاص على الآخر. ومن عاداتهم أن يأخذوا من الجاني سبعة دراهم على جنايته، والمديون إذا تقاعد عن اداء الدين بعث الملك إليه من يخط حوله خطاً أي مكان وجده، فلا يجسر أن يخرج من الخط حتى يقضي الدين أو يحصل رضاء الغريم. فإن خرج من الخط بغير إذن، أخذ الملك منه ثلاثة أضعاف الدين، ويسلم ثلثه إلى المستحق ويأخذ الملك ثلثيه.ومن عاداتهم إذا مات الملك يوضع في صندوق من العود والصندل ويحرق بالنار.(القزويني ,٤٢/١) الشّجاعة المفرطة والقوة العجيبة. إذ يجب أن يكون الزوج قاتلًا ليحق له الزواج بواحدة، وإذا قتل اثنين يحق له الزواج باثنتين وإذا قتل (٥٠) يحق له الزواج ب(٥٠) امرأة. ويعلّل ذلك بزيادة نسبة الذكور على الإناث بشكل ملفت؛ الأمر الذي استدعى عرض تلك المفاضلة العجيبة (التاجر ، ٣٢-٣٣).

كما لعب الزّواج السياسي عبر العصور دورًا مهمًا في تحقيق المصالح المتبادلة. والأمثلة على ذلك تطول، ومنها على سبيل المثال ما شاهده أبو دلف(صاحب الكرج، وأميرها القاسم بن عيسى العجلي.حدث عن: هشيم وغيره.وعنه: مُحَمَّد بن المغيرة الأصبهاني.وكان فارسا شجاعا مهيبا سائسا شديد الوطأة، جوادا ممدحا مبذرا شاعرا مجودا ، الذهبي , ١٩٨٥م,٥٤٢/٨) في خراسان في عهد الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أسد بن سامان، الملك أبو الحسن [المتوفى: ٣٣١ هـ]صاحب ما وراء النهر، وابن ملوكها.كان ملكا رفيع العماد، وري الزناد، زكي المراد، ملك البلاد، ودانت له العباد. وكان قد قتل أبوه سنة إحدى وثلاثمائة، وبقي نصر في الملك ثلاثين سنة وثلاثين يوما. وقام بالأمر بعده ولده أبو مُحَمَّد نوح.الذهبي , تاريخ الاسلام٧,/٦٥٢)من الزّواج الذي تمّ بين ابنته وبين ابن ملك الصّين، وبين ابنة ملك الصين وأحد أبناء الأمير نصر (زواج المبادلة)(ابي دلف الخزرجي، ١٤١٦هـ\١٩٩٥م، ٣٩.).

ومن آثار الزواج السياسي السلبية ما قيل إن ابن ملك الصقالبة كان رهينة عند ملك الخزر، الذي نمى إليه أنّ ابنة ملك الصقالبة فائقة الجمال، فأخذها عنوةً لتعارض قبول الزواج بينه (يهودي) مع مسلمة (بنت ملك الخزر)، ثم قتلها وطلب أختها مجددا؛ فتصدى ملك الصقالبة لذلك بأن زوجها بملك أسكل، واتصل بالخليفة العباسي طالبًا المساعدة والنجدة وتم بناء حصن للتصدي لتعديات ملك الخزر حينها(ابن فضلان، ت ٣٠٩هـ-٩٢١م، ١٧٢.).

وتعد المنازعات الأسرية سببًا للطلاق، حيث تزوج ابن بطوطة من مدينة صفاقص التونسية، ثمّ وقع بينه وبين نسيبه مشاجرة أوجبت طلاق ابنته، وتزوج بدلًا منها فتاة من مدينة فاس(ابن بطوطة، ، ١/ ٨)

وفي حقل الزواج من غرباء، ساد نمط معيشي يقتضي الموافقة على قبول الزّواج من أيّ مغترب قادم لدواعي السفر أو التجارة. لكنّ العجيب في الأمر أنّهن يرفضن السفر مع الزوج إلى مسقط رأسه حتى لو انجبت طفلا، فإنها تتكفل به دون ترك مقرها الأول. ((فقد كانت نساء صنعاء تخرج إلى الأسواق ممتطيات الجمال في المحامل وللغريب عندهم مزية ولا يمتنعن من تزوجه، فإذا قرر زوجها السفر خرجت مودعة له, وتتكفل برعاية طفلهما لحين عودة الأب من سفره، ولاتطلب منه نفقة تعاونا منها وسعيا منها للعمل وتوفير قوت يومها , وحتى لو عرض عليها مرافقته بالسفر فإنها لا تستجيب مطلقا، مهما قدم لها من عروض ومغريات))(ابن بطوطة، ١/ ١٦٥-١٥٧.)

ومن الطبيعي إذا مات الرجل أن يحق للزوجة الزواج بآخر وهو حق إسلامي بحت وساد هذا في العديد من دول العالم الاسلامي ومنها بلاد الصقالبة(ابن فضلان، ص١٧١). غير أنّ هذا جرم كبير يحاسب عليه مجتمع جرجان بتقليد قيام الصبيان على بيتها بالحجارة والخزف(المقدسي,ص٢٧٨.). والغالب على النساء اللاتي أنجبن أطفالًا أن يؤثرن تربية أبنائهن على الزواج من رجل آخر.

وفي صدد الحديث عن الزواج وصف ابن بطوطة زواج المتعة، عندما روى عن جزائر ذيبة المهل وديبة، حيث إنّ النّساء تكشف عن شعورهن، ويعملن أجيرات وخادمات لقاء أجر مقداره (٥) دنانير. وزواج هذه المناطق بسيط وميسر لرخص المهور، بل إن بعضهن يتنازلن عن مهرهن. والعجيب أنه حال وصول المسافرين في المراكب فإنهم يتزوجون من هذه النساء، ثم عند حلول سفرهم يطلقونهن. وذلك نوع من نكاح المتعة. كما أنهن يرفضن السفر خارج موطنهن. وقد امتدح رحالتنا معيشتهن وأشاد بخدمتهن لأزواجهن. حيث إنه تزوج منهن ووصف حسن معاشرتهم وتفانيهن في خدمة ازواجهن , فيحرصن على تقديم الطعام وغسل يدين الزوج ورجليه وتأتيه بالماء للوضوء , كما أنها تكريما لزوجها لا تأكل معه بل تنتظر فراغه من الطعام ثم تتناوله. (ابن بطوطة، ج٢، ص١٢٤-١٢٥.)

رابعاً: صفة مهور النساء المختلفة (الصداق).

المهر في الإسلام، يعدّ من الحقوق الشرعيّة للمرأة. لكن قبل الإسلام نجد أنّه كان للمهر قيمته العالية، فعندما أرادت قريش ترميم الكعبة، حرصوا على أن تكون الأموال المستخدمة في الترميم خالية من الكسب الحرام، لذلك استعانوا بأموال النساء ومهورهن. وليس للمهور نصاب محدّد، بل يختلف حسب الحال الراهنة من يسر أو عسر.

ونجد أنّه عند زواج الخليفة القائم بأمر الله (**شعبان ٤٦٧هـ - ٣ أبريل ١٠٧٥م**)من أرسلان خاتون، بلغ الصداق (١٠٠٠٠٠) دينار(ابن الجوزي، ١٦/ ٧٥؛ الحسيني، ١٩٨٤م، ٢١.) وقيل إنّ صداق ابنة الخليفة القائم بأمر الله، بلغ (٤٠٠٠٠٠) دينار(ابن كثير, ١٩٩٤م، ١٢/ ٨٨.). وأمّا عن صداق فاطمة خاتون ابنة السلطان مُحَمَّد ملكشاة(٥١١هـ/١١١٨م)، وزوجة الخليفة المقتفي(٥٥٥هـ/١١٦٠م)، فقد بلغ (١٠٠٠٠٠) دينار(ابن كثير، ١٢/

٢١١؛ جواد مصطفى، ١٩٥٠م، ص ٢٥٤). وأما صداق نساء العامة والفقيرات فكان قليلاً، حتى إنّ المصادر التاريخية لم تذكر أية معلومات عن ذلك.

نجد أيضًا أن المهور قد تكون عينيّة وليست نقدية، فقد كانت مهور نساء قبائل الغز التركية أثوابًا خوارزمية أو دابة أو ناقة(الحموي , ٦٨٤/٣)

ومن الملفت للنظر (لدى ابن فضلان) وجود قطعة على شكل طوق يخترقها سكّين توضع على صدر المرأة الروسية وتكون مصنوعة من الذهب، أو الحديد، أو النحاس، أو الفضة على حسب غنى زوجها وارتفاع مهرها. ويكون عدد الأطواق بحسب المقدرة المالية للرجل؛ فكلّ طوق يعادل (١٠٠٠٠ درهم) ولذا ترى بعضهن ترتدي طوقين (٢٠٠٠٠درهم) أو ثلاثة (٣٠٠٠٠) درهم وهكذا.(ابن فضلان، ١٧٦.)

وظهر في اليمن جماعة (البهيميّة) وهم يرجعون في الأصل إلى آل عامر إلى سنحان، مصاغهم الصفر والحديد والرصاص، ومهرهم قطع الطريق(ابن المجاور، ص٥٤.). ولعل هؤلاء ممن امتزجوا بجماعات الجنوب الإفريقي ممن طغى عليهم التعدّيات وقطع الطريق.

ظهر لدى بعض المجتمعات ثقافة العيب في أخذ المهر، كما ساد في بعض مناطق اليمن عدم أخذ المهر واعتباره شيئا معيبًا يوجب الطلاق (المفروكة)، وبالتالي يشار إليها بازدراء ويقل خطابها للمرة الثانية، وتشتهر بأخذها مهرًا معيبًا منافيًا للعرف السائد.(ابن المجاور، ٨٥-٨٦.)

وسادت عادة حسنة متميزة أشبه ماتكون بدعم أصحاب الخير للإيسار على المتزوجين، فها هو الشيخ الكعكي من مدينة دلهي يعطي الفقراء والبنات المتزوجات كعكة من الذهب أو الفضة؛ لتكون عونا لأولياء أمورهن لتجهيزهن للزواج احتسابا لله (ابن بطوطة، ج٢، ص ١٩.)

خامساً: حفلات ومراسم الزواج:.

مثّلت حفلات الزّواج البهجة والسّرور في نفوس الحاضرين، وتشابهت التقاليد بعموميّتها، وقد وصف ابن جبير زخارف ومشاهد الدنيا الذائع صيتها في زفاف عروس إفرنجية في ميناء صور الشامية، فوصف فرحة الرّجال والنّساء واصطفافهم بسربين على شكل ممر للعروس، ووصف الطبول والملاهي والآلات الموسيقية. ثمّ خرجت العروس من وسطهما يقودها رجلان من أقاربها، بزيّ فاخر بهيّ، مصنوع من الحرير وعليها طوق مُذهب تمشي بينهم كالحمامة حسنًا، ويسير أمامها ثُلّة من الرّجال وخلفها من أقاربها من النّساء النّصرانيات إلى أن وصلت دار زوجها في طرب ورقص وغناء. وتضمّن ذلك إقامة وليمة طعام للجميع.(ابن جبير، ص٢٧٨-٢٧٩.)

فعند زواج المقتضي الخليفة سنة (٥٣١هـ/١١٣٧مـ) في بغداد تمّ نثر الجواهر والكافور واللؤلؤ والجواهر على العروس(ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٣٢١؛ ابن كثير، ح١٢، ٨٨.). وتعجّب ابن بطوطة من نساء قيسارية(قيسارية: بالفتح ثم السكون وسين مهملة، وبعد الألف راء ثم ياء مشددة. بلد على ساحل بحر الشام

تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديما من أعيان أمهات المدن واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل. الحموي، ج٥، ص١٤٥٦.)

فقد قارن بإعجاب بين مراسم زوج الأميرات من جهة ونساء العامة. فالأميرة خاتمون زوجة الأمير سلطية تركب عربة خاصة ، محاطة بالشبر الأزرق الناصع ، تناظر طواقي البيت المفتوحة ،يصحبها أربع جواري غاية في الجمال وأناقة اللباس ،وتتبعها عربات مشابهة تحوي مايقارب ٣٠٠ جارية لخدمة زفافها ، فهن يرفعن ثوبها من كل ناحية بعرى وحبكات خاصة ، وهي تمشي متبخترة بين يديهن ، وحين وصولها الى الأمير بادر باستقبالها والسلام عليها ،وجرت تقاليد الزواج؛ بأن قامت بالجلوس أمام الأمير وأعطته كاسا من الشراب , ثم سقت أخاها وأيضا قام الأمير بسقايتها، ثم تمت الولائم بفرح وسرور .....فنساء السوقة والباعة تركب مركبا بصحبة ثلاث جواري وعلى رأسها إكليل مرصع بالجوهر ومن فوقه ريش طاوس، ويكون وجهها مكشوفا ، وتأتي لزوجها ومعها عبيدها وجواريها وماشيتها فتبتاعه لقاء الحصول على العطر اللازم لهذه المناسبة...(ابن بطوطة، ج١، ص ٢١٢.)

فها هي فيروز خونده بنت السّلطان علاء الدّين ملك دهلي. والموصوفة بفرادة الزمان والبهاء والحسن والعقل والفطنة والذكاء ، والكياسة والملاحة المكرمة والمغدقة للعطايا والهدايا، المتمرسة للسياسة في الشدائد ، ذات النصح وحسن التدبير، وليس أدل على ذلك من مواقفها الشجاعة مع أخيها السلطان شهاب الدين التي ضبطت له المملكة بوعيها وحسها وبعد نظرها، ولأهمية ذلك فقد حرص الأخ على عدم زواجها خارج متنطقته ,فزوجها من شخص غريب (الأمير غدا بن هبة الله بن مهني أمير عرب الشام آنذاك) بقصد إجباره على الإقامة عنده، ويذكر ابن بطوطه بأنه كلفه أن يلازم العريس ويرافقه ، فأقام لها عرسا ضخما، شمل أجمل الصيوانات التي ظللت ساحة القصر الأحمر ، والقباب الضخمة، والفرش الجميل. وأحضر أبرز المغنين (شمس الدين التبريزي) ومعه المغنون والمغنيات والجواري الراقصات، علاوة على الاهتمام بالولائم وإحضار الطباخين والخبازين وصناع الحلوى والتبولة والشوائين، وأقيمت الموائد لإطعام الناس لمدة نصف شهر بحضور بهيج لجميع أفراد المجتمع.(العاملي, ٤٤٩/١)

سادساً: لباس المرأة وحليها:

حرصت المرأة المسلمة على ستر زيها من الرأس لأسفل الجسد بلبس الخمار الذي يغطي كامل الجسد(دوزي, ١٩٧٨م, ٢٠٤/٤.) والوشاح (شئ ينسج من أديم عريض ويرصع بالجواهر، وتشده المرأة بين عاتقيها) (الجوهري , ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م,٤١٥/١.) والبريم((خيطان مختلفان أحمر وأبيض) ، وقيل أحمر وأصفر. الحبل المفتول يكون فيه لونان وربما (تشده المرأة على وسطها وعضدها) ، وأنشد الأصمعي للكروس بن زيد:(وقائلة نعم الفتى أنت من فتى ... إذا المرضع العرجاء جال بريمها))(الزَّبيدي ، ت١٢٠٥هـ, ٢٦٧/٣١.) فهو ثوبٌ أوْسَع من الخِمَار دون الرِّدَاء تُغَطِي بِهِ المرأةُ ظهْرها وصَدْرَها وَقد تَجَلْبَبَت وجَلْبَبْها والصِّدَار – ثوبٌ يُمْسِكها النِّساءُ بأيديهِنَّ إِذا نُحْن او بكين(ابن سيده، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م,٣٦٦/١.) والبرقع برقع المرأة ما تستر به وجهها (أبو العباس الحموي، ت: نحو ٧٧٠هـ,٤٥/١.) واللاذ ثِيَاب حَرِير تنسج بالصين (إبراهيم مصطفى,٨٤٥/٢.)

واهتمّت النّساء بالحليّ، مثل: الخلاخل، والخواتم، والقلائد، والأساور. وقد وصف ابن جبير في رحلته، سلجوقي خاتون وقد لبست العصائب المكلّلة والمذهّبة(ابن جبير, ٢٠٦، ٢٠٧.) ، وقد لبستها جواري هذه السيدة(ابن جبير، الرحلة، ٢٠٧.) ، ولبست النساء الرّداء والإزار والسروال. وفي الأهواز لبست النّساء فوط من القزّ حسنة المنظر (غطاء الرأس) (المقدسي، ص٣١٠.). وزادت نساء الهند على ذلك بارتداء فوطتين والتحلي بإسورة الذّهب والجواهر(التاجر، ص٥٩.).

ومن عادات نساء أهل الصّين، أنّهن يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيه الأمشاط، فربما كان في رأس المرأة ٢٠مشطاً من العاج(التاجر، ص٤٣.). التي كان يصنع بعضها من الخشب والصدف والصندل (شوقي, ٥٠.).كما اشتهرت الماشطات بالقيام ببعض الخاصة بتزين وجه النساء كالتلقيح (إصلاح الأسنان وبردها وإزالة بقايا الأطعمة منها)(ابن منظور , ١٩٧٣, ٣٤٦/٢) و(التزجيج)تدقيق الحاجبين ووضع الكحلة على العين(ابن منظور , ٢٨٧/٢,.)و(التنميص)إزالة شعر وجه المرأة(الفيروزابادي ,١٩٢٩م ,٣٢٠/٢.) ,و(الوشم) الرسم على الجلد بالفحم(ابن الجوزي , أحكام النساء ,٣٤١.) . وعرفت بعض الماشطات ب(البلانة)وكان يعملها يقوم على صبغ شعر النساء (إبراهيم مصطفى ,٧٠/١.).

وقد اشتهرت أسواق تنيس في مصر بالعمائم التي تنسج من القصب، مما تضعه النساء على رؤوسهن.(خسرو، ت ٤٨١هـ/١٠٨٩م,ص ٨٣.)

ويبدو أنّ لباس المرأة في مكّة كان بارتداء البرقُع والقناع(ابن المجاور ، ٦). كما وصف ابن جبير في رحلته هودج عمّة الأمير مكثر والي مكة، الشّريفة جمانة بنت فليته. ووصف أذياله التي تنتهي بسُتر عديدة ويشابهها في ذلك هوادج نساء القصر والإمارة والقادة، وشبّهها من أعلى الناقة بالقباب المرتفعة الملونة المزخرفة ومحاطة بأكاليل الشّموع التي تحيط بالرّكب(ابن جبير، ص١٠٧-١٠٨.).

ووسم نساء خراسان من أمراء العجم بالعقائل المسميات بالخواتين، ومفردها خاتون(ابن جبير، ص١٥٣.). وقارن ذلك بنساء بعض جزر المليبار واللاتي لايلبسن لباسا مخيّطًا، فتحتزم النساء بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها. ووصفهن بالحسن والجمال ووجود قطعة ذهبية في أنف كل منهما، تزينا وتجملا. وشاهد ابن بطوطة ١٣ مكتبا لتعليم البنات حفظ كتاب الله عز وجل.(ابن بطوطة، ١١٠/٢.) وربما العلوم الدينية المختلفة لإسلامهن وعفتهن واحتشامهن.كما كان للنساء دور في تعليم الأدب والقراءة والموسيقى(بيهم ,١٩٦٢م, ١٥٠)

وعلى النّقيض من ذلك، وفي مجتمعات غير المسلمين في الصين والهند، وجدت مشاهدات لنساء ورجال عراة ، وكان يُكتفى بوضع ورقة من الشجر لستر العورة (التاجر، ص ٣٣.) ، فلا ضوابط دينية أو أخلاقية مانعة في ذلك. ((ولباس نساء قوم فرع وأرض بني شعبة باليمن الأدم(الجلد)، وذلك أن المرأة تأخذ طاقين من أديم تخيط بعضه الى بعض وتقور فيه قوارة وتكتسيه، فإذا مشت بان جميع بدنها من فوق ومن تحت، وإذا رأى غريب المرأة

على ذلك الزي يقول لها: استتري. فيقول له زوجها: اكسها. فإن كساها وإلا قتله لأنهم يقولون: من ستر غيّر (ابن المجاور، ص٥٢.). وكأنها وسيلة لاستجداء اللباس لديهم.))

ولوحظ أن نساء الغزّ التركية لاتستتر مطلقا عن الرجال؛ والحال أسوأ في بعض مناطق الصقالبة العُراة الذين يغتسلون ويسبحون مختلطين دون قيد أو مانع. ولم تجدِ محاولات ابن فضلان نفعًا عندما حاول إقناعهم بالعدول عن الاختلاط في السباحة، وباء بالفشل. (وما زلت أجتهد أن تستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك).(ابن فضلان، ص١٦٢.) وكانت عادة النساء التركيات أن يكشفن وجوههن.(ابن بطوطة، ج١، ص١٣٠.)

((وفي موضع المفازة على الطّريق البحري بين الحجاز واليمن ينزل النساء مع الرجال في البحر خليط مليط وهم في شرب ولعب ورقص وقصف وزائد وناقص في كل يوم اثنين وخميس(ابن المجاور، ١٩٥١م، ص٨١.). وكذلك نساء أهل عيذاب من السودان البجاة عراة إلا خرق يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون)).(ابن جبير، ص ٤٩.)

ومن الجدير بالملاحظة، أن بعض نساء غير المسلمين يتشبهن بزي نساء المسلمات، فيلبسن اللّحف الرائقة والنقب الملونة، والحرير، والخفاف الذهبية، والحلي والجواهر والعطور والحناء في كنائسهن.(ابن جبير، ٣٠٧.)

سابعاً: امتزاج واختلاط الأنساب.

ومن الأمور الخاصّة بالنساء ما يدخل في حديث تغريب النكاح فذكر ان أحد ملوك الشرق القدماء، قد أمر بنفي ٤٠٠ رجل الى مكان قاحل منقطع عن الناس، وكان ذلك بموقع عرف فيما بعد بـ (خوارزم), وبعد فترة من الزمن أرسل من يتحرى أخبارهم فوجدوهم أحياء، وقد ابتنوا المنازل وعملوا في الصيد في نهر جيحون , فسألهم هذا الملك عن قولهم في اسم اللحم فأجابوا: هو خوار . وعن اسم الحطب فأجابوا رزم، فأقرهم بتلك المنطقة وأطلق عليها لفظ خوارزم وأمر أن يرسل إليهم ٤٠٠ جارية من التركيات ليتزوجوهن فتم ذلك(المقدسي، ص٢٢٦.). فكان ذلك مثال لخلط الأنساب وتداخلها فيما بينهم.

ومن أمثلة اختلاط الأنساب ما يتم تبادله وإرساله من المغرب الى المشرق وأحيانا العكس تماما من النّساء، فالنساء اللواتي أنجبن أبناء بعض الخلفاء العباسيين ،مثل البربرية سلامة أم المنصور ومن طرائفها ماروا طيفور مولى أمير المؤمنين الخليفة العباسي، قال حدثتني سلامة أم أمير المؤمنين قالت لما حملت بأبي جعفر رأيت كأنه خرج من فرجي أسد فزأر ثم أقعى فاجتمعت حوله الأسد فكل ما انتهى إليه منها أسد سجد له (ابن عساكر ,٢٣١/٦٩) وقراطيس أم هارون الواثق (أم ولد اسمها قراطيس، ماتت فى طريق الحج؛ وجعفر المتوكل، أمير المؤمنين، أمه شجاع ، تركية؛ ابن حزم ,٢٤/١)، وقتول أم أبي منصور القاهر بن المعتضد ممن وصفن بأنهن مولدات حسان(ابن حوقل، ص٩٥.). وفي هذا ما يؤكد زواج الخلفاء لأكثر من امرأة ،وما تتمتع كل واحدة منهن بصفات جمالية خاصة، علاوة على اختلاط الأنساب.

ثامناً: صور الاختلاط الفاحش بين الرّجال والنّساء.

لقد كانت العصبية القبلية في بعض المناطق تجعل من القتل عقوبة مباشرة لأيّ اختلاط ينافي طبيعة تلك العصبية، فيمكننا أن نلاحظ أنّه لا يجوز للمرأة في مدينة طبس الفارسية (مدينة بين أصفهان ونيسابور (القزويني ,١/ ٤٠٦) أن تتحدث مع رجل غريب مطلقًا، وإلّا ستواجه عقوبة القتل مع من تحادث(خسروا، ص١٩٧.) ومن جميل ما يذكر، حرص نساء بعض الأقاليم كمدينة قنا المصريّة(قِنَا:بكسر القاف، والقصر، وهي كلمة قبطية: مدينة بالصعيد تمتاز بلطفها. (الحموي,٤/٣٩٩)، والتزامهن وحشمتهن وعفتهن؛ فلا ترى امرأة في أي طرقها مطلقا.(ابن جبير، ص ٤٠.)

وجرت عادة جميلة شهدها ابن بطوطة وأُعجب بها ووصفها وصفًا جميلًا، عندما أشار إلى أنّ بعض نساء تركمان الشام، كانت تحرص على إعداد الزاد والطعام والإدام والخبز الطيب لإعطائه المرتحلين حال الارتحال تزودا وعونا على السفر. وكن يتباكين على فراق الضيف؛ ويبدو أنهن يقدمن ذلك مرضاة لله، حيث يطلبن منهم الدعاء لقاء ذلك فقط.(رحلة ابن بطوطة، ج١، ص١٨٠.)

ويصف ابن بطوطة نماذج مغايرة لاختلاط المفاسد، كما هو الحال بإقليم لاذق وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف، وتسمّى أيضا ذون غزله ، وتفسيره بلد الخنازير، وهي من أبدع المدن وأضخمها، وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة، ولها البساتين الرائقة، والأنهار المطرّدة، والعيون المنبعة، وأسواقها حسان، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها، تطول أعمارها لصحّة قطنها وقوّة غزلها، وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها، وأكثر الصنّاع بها نساء الروم، وبها من الروم كثير من أهل الذمّة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها.وعلامة الروم بها القلانس الطوال، منها الحمر والبيض ونساء الروم لهنّ عمائم كبار، وأهل هذه المدينة لا يغيّرون المنكر بل كذلك أهل الاقليم كلّه، وهم يشترون الجواري الروميّات الحسان ويتركونهنّ للفساد، وكلّ واحدة عليها وظيفة لمالكها تؤدّيه له، وهنالك الجواري يدخلن الحمّام مع الرجال، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمّام من غير منكر عليه،حيث تباع الجواري للبغاء والمفسدة في الحمامات المختلطة بين الرّجال والنّساء، وهذا بخلاف وجود حمامات منفصلة ما بين الرجال والنساء كمدينة طبرية (ابن بطوطة، ج١، ص٣٦.).

وقد لوحظ أن الاختلاط يسبب الكثير من المتاعب والمشاكل الاجتماعية والخلقية والنفسية، ولهذا فقد كان المحتسب يعاقب الشبّان الذين يعملون على كشف عورات النساء، من خلال الوقوف على أبواب الحمامات الخاصة بالنساء للنظر إليهن(الغزالي، ج٢، ص ٣٢٠.).

ومن الغريب والعجيب عدم فهم الإسلام فهما صحيحًا، وعدم تطبيق شرائعه في موضعها. فقد لاحظ ابن بطوطة لنساء إقليم إيولاتن من الاختلاط الفاحش للنساء مع الرجال وغياب الغيرة مطلقًا. حيث نجد أن للمرأة أصدقاء، فقد يجدهم الزوج في بيته وبشكل غير لائق، وكذلك حال رجالهن دون غيرة أو تعجب مع مواظبتهن على أداء الصلوات .(ابن بطوطة، ج٢، ص١٩٤.) فلا حياء ولا غيرة للنساء والرجال. وقابل ذلك ما ساد بجرجان (وهي في الإقليم الخامس ,وبعدها عن خط المغرب، ثمانون درجة، وعن خط الاستواء تسع وثلاثون درجة ,وهي من مدائن خراسان إلى نهر الأيلي .افتتحت في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ثم ارتدّ أهلها عن الإسلام، حتى افتتحها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك.وهي

عظيمة وخراجها يبلغ عشرة آلاف ألف دينار في العصر الأموي .(المنجم ,١/ ٧٠)حيث تمّ منع خروج النّساء نهارًا منعا للاختلاط لقاء خروجهن محجبات ليلًا (في كساء أسود).(المقدسي، ص٢٧٨.) عفة واحترازًا.

وتمّ منع الظهور والاختلاط مطلقًا لبعض النساء لحين عقد زواجها ففي ((منطقة الزربية من أعمال اليمن، فلم تظهر بنت إلّا إذا عقد نكاحها وقطع مهرها، وبعد ذلك تظهر البنت بطبل وزمر على رؤوس الأشهاد بالضيافات والطرح والتسليم. وتبريرهم لذلك أنّهم قالوا نخاف نظهر طفلة فإن كبرت رأت نبتها وخدها وقدها ونهدها مع أعكانها مليحا يعجبها حسنا، فتحتاج إلى أن تخرج عن الطريق إلى غير الطريق، بل نخليها على حالها فإذا رأت فلقها طويلة وهي كريهة الرائحة وحشة المنظر تخمد نارها، ويقل طلابها لأجل ما معها من طول الغفلة، فإذا مهرها ظهرت فأدخلت على بعلها هين عليها.))(ابن المجاور، ص٣٣٩.)

تاسعاً: السوق ودوره في التسويق للزواج :

تمثل الأسواق بيئة خصبة للبيوع والشراء واللّقاء. كما أنّها حملت بُعدًا اجتماعيًا آخر ظهر بوضوح من خلال عدّة ممارسات قد تنتهي بالخطبة والزواج. فقيل ان مدينة جرجان كانت تحوي سوقا خاصا بارض فسيحة سهلية تحوي ما يشبه حلقة المصارعة , يتصارع فيها النساء والرجال ويسجل المشرف على ذلك نقاط للفائزين على هيئة عقد عقدة بحبل لكل من يفوز في كل مرة , فاذ أعجب الفائز بأحد النسوة الموجودات يزور أسرتها ويضيفونه ثلاثة أيام , وبعد ذلك يتم خطبتها .بخطبة بليغة أدبية من الطرفين ....(المقدسي، ص٢٧٨.) وهي عادات قديمة متجددة لإبداء الوجاهة والمناظرة بين طرفي العروسين .

ولوحظ أن بعض الأسواق تمثل مرتعًا لشرب الخمر، والاختلاط بين الرّجال والنّساء كما هو الحال في مدينة اخلاط التركية، وقد ينطبق هذا على عناصر غير إسلامية، حيث إنهم يبيعون لحوم الخنزير في هذه الأسواق (خسرو، ص٣٣.) علاوة على وجود بعض الأسواق الخاصة بالشرب والغناء والرقص والطرب والزنا .... كسوق طرب أباد.(ابن بطوطة، ج٢، ص١٠٦.)

وبمدينة دولة أباد سوق للمغنّين والمغنيات تسمى طرب أباد، من أجمل الأسواق وأكبرها، فيه الدكاكين الكثيرة، كلّ دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه، وللدار باب سوى ذلك! والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي متزيّنة بأنواع الحلي وجواريها يحركن مهدها.وفي وسط السوق قبّة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كلّ خمسين، وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين(ابن بطوطة ,٢/٢٢٨)

عاشراً: التعدّد ومقارنته مع غير المسلمات.

أباح الإسلام التعدد ولكنه قيّده بضوابط تختص بتحقيق العدالة عملاً بقوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} سورة النساء، آية رقم (٣).

فالإسلام يكون التعدد لأربع زوجات مشروطا بتحقيق العدل بينهن. غير أن هذا الرقم قد فاق المألوف لدى نساء إقليم البرهنكار ليصل إلى ٣٠ زوجة. ويصف نساءهم بأنهن همجيات، تستر الواحدة منهن عورتها بأوراق الأشجار ويتزاوجون كالدّواب والبهائم، ولكنهم لا يمارسون الزنا. وحدّ الزّنا عجيب لديهم وذلك بإيقاع عقوبة الزنا المتكرر، حيث يأمر الوالي خدمه بنكاحها جميعا حتى تموت ثم يلقون بها في البحر(ابن بطوطة، ج٢، ص١٥١.) .ويصف ابن بطوطة البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب، وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقّفة بحشيش الأرض على شاطىء البحر، وعندهم من أشجار الموز والفلفل.ورجالهم على مثل صوّرنا الا أن أفواههم كأفواه الكلاب! وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر، ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة، والجاوة ساكنون في حارة على حدة، أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك، ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه، وأنهم لا يزنون وإذا زنا أحد منهم فحدّ الرجل أن يصلب حتى يموت! أو يأتي صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو، وحدّ المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته، حتى تموت ويرمون بها في البحر! ولأجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل إليهم إلا إن كان من المقيمين عندهم، وانما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل، ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لأنهن يطمحن إلى الرجال الحسان! والفيلة كثيرة عندهم، ولا يبيعها أحد غير سلطانهم ثم تشتري منه بالأثواب، ولهم كلام غريب لا يفقهه إلّا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم، واتفق في ليلة من ليالي إقامتنا بمرساهم أن غلاما لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل، وعلم بذلك زوجها فجاء في جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به، فحملا إلى سلطانهم فأمر بالغلام فقطعت انثياه وصلب! وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت! ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال: إنا لا نجد بدّا من إمضاء أحكامنا، ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المصلوب. (ابن بطوطة, ١٠٧/٤)

وفي غير الإسلام لا يحق للمرأة الزواج بعد وفاة زوجها. كما ساد لدى القبيلة التركية (الخطلخ) فإذا زنت أحرقت مع زانيها، ولا طلاق بينهم. ومهرهم كل أملاك الزّوج، كما لا يحق للملك لديهم الزواج وإن فعلها يعاقب بالقتل. (أبي دلف، ص٥٠.)

حادي عشر: الحيض والإنجاب.

لقد أكرم الله –عز وجل– المرأة المسلمة أمًّا، وأختًا، وبنتًا. فهي مكمّلة للرجل في كلّ ظروفه الحياتية. فما هي نظرة غير المسلمين للمرأة الحائض؟

نجد أنّ المرأة إن حاضت ترك رجال الهند منازلهم تقززا منهن، وخالف أهل الصين ذلك أيضًا بأنهم يأتون النّساء في المحيض(التاجر، ص٥٨) ويزداد الأمر سوء عند اليهود الذين يفرضون عزلة تامّة على الحائض، فهي تأكل وتشرب وتنام معزولة، حتى ينتهي حيضها. ثمّ تذهب إلى بئر يعرف باسم بئر طومى لتغتسل وتعود للبيت ((قال ابن المجاور: ولهم ببغداد بئر تسمى طومى في محلّة خرابة بين خرزة، وهو بئر مدرّج وقد عرض في وسط البئر عود

على خرزة البئر، وقد ضرب في الخشبة سلسلة طويلة إلى أن يصل إلى آخر السلسة ثمّ إلى قرار الماء. فتخلع المرأة ما عليها من الأثواب وتلزم السلسة ولا تزال تسقط في الماء أي تغوص إلى أن تقول لها امرأة من أعلى البئر: نظفت وتطهرت. فإذا سمعت المرأة ذلك علمت أنها طهرت من نجس الحيض. فحينئذ تلبس ثيابها وجميع اليهوديات يلقونها حين تطهر المرأة.(ابن المجاور، ص٣٦.)) وكأنها قد ولدت من جديد.

قد أثبت العلم الحديث إنجاب المرأة لطفلين أو ثلاثة بل وسبعة، وهذا ما لوحظ للنساء القبطيات في مصر، وكان يظن بأنهن ينفردن بذلك تأثرًا بشربهن من مياه نهر النيل الذي يمتاز بما يمنحه من خصوبة للأنوثة والقدرة الفائقة على الإنجاب (وذلك أن ماءهم على قولهم أنيث)(ابن حوقل، ص١٥١.).

ولزيادة النّسل والتّشجيع على التكاثر لخوض غمار المعارك والحروب، قيل ((إنه وبعد غرق فرعون وقومه زوّجت النساء من العبيد حتى تكثر الذرية خشية أن تطمع الملوك بمصر)).(الغرناطي، ت ٥٦٥هـ ,٢٠٠٣م، ص٦٥)

كما مُنحت نساء الهند السجينات حق الاختلاط بأزواجهن في أثناء الزيارة. وقد لاحظ ابن بطوطة أنّ بعضهن يحملن وينجبن لذلك (ابن بطوطة، ج٢، ص ٦٤.). ولم تخلُ رحلة ابن بطوطة من ترجمة حياته الاجتماعية وزواجه من نساء الهند وإنجابه طفلة توفيت بعد شهرين (ابن بطوطة، ج١، ص٢٣٩).

ثاني عشر: أعمال المرأة البدنية وكد المعيشة:

تنوعت أعمال النّساء وتعدّدت تبعًا للظروف الاقتصادية والمعيشيّة حينًا وللأعمال المتاحة حينًا آخر. فعملت نساء صنا بجنديسابور بالنسيج والحياكة والصوف(المقدسي، ص٣٠٤.). وكذلك نساء اليمن.(ابن المجاور، ص٩٠.) وهذا ما ينطبق على معظم أعمال النّساء في كافة الأقاليم في الغالب. وتعمل نساء نجد بغزل القطن، وينسجن منه شبه أكسية صوف، تسمى(ثياب الهجيرة) للفقراء والعبيد والجواري.(ابن المجاور، ص٣٣١.) كما وصفت نساء نجد (بالشريفات)بأنّهن يعملن بالرعي وبيع اللبن وجمع الحطب.(ابن جبير، ص ٥٣.)

وقد تعمل بعض النّساء بأعمال لا تتناسب وطبيعتها الجسديّة. كصناعة الآلات العسكريّة كالسّيف، والرّمح، والترس والزّي العسكري، والتي تتطلب جهدًا كبيرًا، وهذا ما ينطبق على أعمال نساء إقليم دربند(الغرناطي، ص ٦٣-٦٤.) (ودربند : ذاك المكان الذي ابتناه أنوشروان ببناء حائط من الصخر والرصاص، وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وعلاه حتى ألحقه برؤوس الجبال ثم قاده في البحر. فيقال: إنه نفخ في الزقاق، وبنى عليها حتى استقرت على الأرض، ثم رفع البناء حتى استوى مع الذي على الأرض في عرضه وارتفاعه، فجعل أحد طرفيه في البحر وأحكمه، وقد مده سبعة فراسخ إلى موضع أشب، وهو جبل وعر لا يتهيأ سلوكه، وبنى بالحجارة المهندمة نقل أصغرها خمسون رجلاً وأحكمها بالرصاص والمسامير، وجعل في هذه السبعة فراسخ سبعة مسالك، على كل مسلك مدينة، ورتب فيها قوماً من مقاتلة الفرس على كل مدينة مائة رجل يحرسونها، بعد أن كان محتاجاً إلى مائة ألف رجل. ثم نصب سريره على القيد الذي صنعه على البحر، وسجد شكراً لله على ما تم على يده وكفاه شر الترك وهجومهم، واستلقى على ظهره وقال: الآن استرحت. ومدينة باب الأبواب من تلك المدن. والعجم يسمونه دربند. القزويني ,٥٠٨/١). كما وصفت بعض النّساء في أصفهان بالتكسب بالعمل كحراس للحمامات العامة.(المقدسي،

ص٢٩٩.) لتنظيم دخول النّساء والفصل بينهن والرّجال. علاوة على اشتهار أصفهان بالشهد وَالْعَسَل والسفرجل والكمثرى الصيني والتفاح وَالْملح والزعفران والأشنان والاسفيذاج والكحل والسرر المطبقة والأثواب الْجِيَاد وَالشرَاب من الْفَوَاكِه . (الجاحظ ,٢١/١)

وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له: اذهب معي لتأكل نان وماس، والنان بلسانهم الخبز، والماس اللبن ، فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك، وأهل كل صناعة يقدّمون على أنفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو ، وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبّان الأعزاب، وتتفاخر تلك الجماعات بما لديهم من الأطعمة وسواها في احتفالاتهم .وذكر أن طائفة منهم أضافت طائفة أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم إضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير(ابن بطوطة ,٢١/٢)

ومن الأمثلة على المشاركات السياسيّة لأعمال النّساء، أنّ أورجا ملكة كيلوكرى(وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وراء مكسور"، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم) في بلاد طوالس بمحاذاة إقليم الصين، قد اشتهرت هذه الملكة بالمشاركة السياسية في الحروب نظرًا لشجاعتها وقوة بأسها. حيث إنّها حرصت على أن يكون لها عسكر خاص من النّساء، كما أنّها كانت تشترط بمن يخطبها أن يبارزها بالسيف؛ من غلب عليها تزوجته وهذا منع الكثير من الإقدام على ذلك خشية العار حال هزيمتهم أمامها. وقد كانت وفاتها بخيانة أصابتها من ملك الصين آنذاك. علاوة على أن ابن بطوطة قد أشار إلى حسن استقبالها للتجار الوافدون بحرًا، وقد وصف مشاهد الأبّهة والترف المحيطة بها، فلديها مجلس أعظم، ويحيط بها نساء يعملن بالدواوين ولديهن سجلات للعرض عليها، ويضمّ مجلسها عددًا من النّساء ممن تنصبن الوزارة، وبصورة بهيّة تجلس على كرسي من خشب الصندل مرصع بالجواهر وأنفس الحليّ. وتحاط بأواني وقلال مملوءة بشراب لذيذ الطعم، عطر الرائحة وجميل النكهة، يقدم للضيوف في مجلسها. وقد جالسها ابن بطوطة ودار بينهما حوار شجيّ، ويبدو أنّها كانت تجيد كتابة اللغة العربيّة، وقد أكرمت رحالتنا (بأثواب وكمية كبيرة من الأرز ، وعدد من الجواميس والضأن، وكميات من الزنجبيل والفلفل والليمون).(العاملي,٢٣/١.)

وقد يكون الغناء وسيلة للتكسّب وطلب الرزق، بجهد أقل ودخل أعلى، وهذا ما شاهده ابن بطوطة لعمل النساء في طرب أباد. ووصف ذلك بالتكسب لأنهن يغنين ثم يصلين التراويح في المسجد في شهر رمضان(ابن بطوطة، ج٢، ص ١٩.) في حين امتازت أرمينية بتنوع أعمال النساء ما بين غناء وطبخ وطهي(ابن حوقل، ص٢٩٨.).

ولم يقتصر عمل المرأة على العمل لأجل جني المال، بل إن هناك أعمالًا خيريةً لوحظت في إكراء الماء لقاء مبلغ رمزي بسيط في مصر. حيث قامت إحدى المحسنات بالتبرع بتوزيع الماء على الفقراء بقرَب تتسع لحوالي٣٠لترا بحوالي ٥٠٠٠ لتر في كل شهر(خسروا، ص١٠٩.). وهذا حال نساء مدينة الماجر(وهي بفتح الميم والف وجيم مفتوح معقود وراء، مدينة كبيرة من أحسن مدن التّرك على نهر كبير، وبها البساتين والفواكه الكثيرة) التركية التي كانت تتصدق وتفعل الخير المشهود (رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٢١١.). وفي البصرة أيضًا ((يقال إنه كان يوجد في مدخل نهر الأُبُلَّة دوامة عظيمة تمنع السفن من الوصول الى فم النهر، فأمرت إحدى نساء البصرة وكانت

ذات ثـراء عظـيم ببنـاء مائـة زورق وإغراقهـا في تلـك الدوامـة لسـدها مـن الوصـول إلى فـم نهـر الأُبُلَّـة، وقـد تم ذلـك بنجاح.)) (خسروا، ص١٨٥-١٨٦.)

ثلاثة عشر: الإماء والجواري .

اهتم ابن بطوطة بذكر الجواري وبعض أحوالهن. فأشار إلى اعتبارهن وسيلة للتهادي بين ملوك الدول، كما حصل عندما أهدى حاكم الصين لحاكم الهند ٥٠ جارية فبادله الهدية ب١٠٠ مغنية من الجواري(ابن بطوطة , ج٢, ص ٩٣.) كوسيلة لزيادة الألفة والتقارب بين البلدين.

كما تستخدم تلك الجواري كوسيلة للتجسس حينا آخر؛ فقد اعتاد حاكم الهند أن يكون له جوارٍ في قصره بمثلن عيونًا وجواسيس على أمرائه من جهة، وجوارٍ أخريات (كناسات)لتناقل الأخبار مع جواري القصر تمهيدا لنقلها لحاكم الهند مباشرة.(ابن بطوطة , ج٢,ص ٦٦.) وذكر في حال الجواري حسنهن في سمرقند(وهي في الإقليم الخامس.وبعدها عن خط المغرب، تسع وثمانون درجة، وعن خط الاستواء ست وثلاثون درجة.وهي من أجلّ البلدان وأعظمها، وأشدها امتناعا وأكثرها رجالا.وهي في نحر بلاد الترك. نافقت بعد أن افتتحت، ثم افتتحها قتيبة بن مسلم، في زمن الوليد.[لها] نهر عظيم يأتي في بلاد الترك يقال له اسف..(المنجم ,٨٤/١) .(المقدسي، ص٢٢٠.) وكذلك حال جواري أرمينية(بكسر أوّله وإسكان ثانيه، بعده ميم مكسورة وياء، ثم نون مكسورة: بلد معروف، يضمّ كورا كثيرة، سمّيت بكون الأمن فيها، وهي أمّة كالروم وغيرها. وقيل سمّيت بأرمون بن لمطى بن يومن ابن يافث بن نوح.(البكري , ١٤١/١) اللاتي وُصفن بالحسن والجمال.(ابن حوقل، ص٢٩٨.)

ومن المشاهدات المنقولة عن ابن بطوطة أن بيلمون زوجة السّلطان أوزبك ابنة ملك القسطنطينية العظمى السلطان "تكفور". حيث كانت من العادات المتعارف عليها حال زيارة السلطان ضرورة زيارة أسرته وزوجاته. ولذا فقد أشار ابن بطوطة لعظمة إقامتها لمجلسها واصفا:إنها تجلس على سرير مصنوع من الفضة ويحيطها ما يقرب من ١٠٠ جارية من الروم والترك والنوبة , ويحيطها عدد من الحجاب الرجال الروم , وأنها قد سألت عن حال ابن بطوطة ورفاقه، وبكت لحالهم وأمرت لهم بالطعام(خبز وغنم وسمن وكسوة.... وقضاء حوائجهم وأظهرت نبل الأخلاق ودماثتها, وطلبت عدم انقطاعهم عن بلادها.).(العاملي ,١٠٣/١.)

نجد أنّ الجواري حرصن على قوام الجسد الأفضل، من خلال العناية بالطعام الكفيل برشاقتهن، فذكر ابن فضلان أنه شاهد في بلاد الصقالبة تفاحاً شديد الخضرة والحموضة معا، ويمثل هذه النوع من الفاكهة طعاما مستساغا لتلك الجواري لزيادة وزنهن ورشاقتهن . (ابن فضلان، ص١٥٧.)

وقـد شـاع في روسـيا اعتبـار الجـواري سـلعا رخيصـة فتعتـبر وسـيلة للـزنا الفـاحش. حيـث تـوفرت بعـض البيـوت الـتي تتضـمن مجموعـة مـن الأسِرَّة تـترواح بـين (١٠-٢٠) سـريرا تتـاح لمـن يرغـب بممارسـة الـزنا وعلـى مـرأى مـن أعـين النـاس، وهـم ينظـرون إلى بعضـهم الـبعض. وقـد يعجـب أحـدهم بجاريتـه الـتي ضـاجعها فيشـتريها، ولا عجـب في ذلـك فملـك الـروس آنـذاك كـان لـه ٤٠ جاريـة، ربمـا وطـيء إحـداهن بحضـرة عبيـده الغلمـان الـذين يصـل عـددهم إلى مـا يقـرب مـن

٤٠٠غلام. ولكل واحد منهم جاريتان إحداهما يطؤها، والأخرى لتوفير مستلزماته كالطعام والشراب والغسيل ....(ابن فضلان، ص١٨٧.) فلا أخلاق ولا حياء. يشابه ذلك أنّ ملك الخزر كان له ٢٥ زوجة جميعهن من بنات ملوك الجوار. كوسيلة للضغط السياسي على تلك المقاطعات المجاورة، ولضمان ولائها وعدم تمرّدها عليه. كما كان له ٦٠جارية منهن الجواري فائقات الجمال مما يظهر أنّه تمّت عناية تامة في الاختيار. كما كان لكلّ واحدة منهن قصرٌ خاصٌّ وحرس خاص وخدم. وتكون أداة مطيعة حال رغبة ملك الخزر فيها، ليقودها خادمها لإتمام الأمر، ثمّ يتولى إعادتها لقصرها ومقرّ إقامتها.(ابن فضلان, ص١٩٢-١٩٣.) كما بلغ عدد جواري عمدة الدولة ٣٠٠ جارية من الحسناوات في مصر.(خسروا،ص١٢٥-١٢٦.)

ويقابل ذلك وجود عدد من الجواري المسلمات اللاتي أقمن في قصر حاكم صقيلية الملك غليام، واللاتي التقين مع عدد من الجواري غير المسلمات واستطعن إقناعهن بالدّخول في الإسلام، وتركن أثرا طيبًا في ذلك.(ابن جبير ,ص ٢٩٩.) مما يدلّ على الأثر البارز الذي اضطلعت به المرأة المسلمة في نشر الإسلام وإقناع الجواري غير المسلمات بالدخول في الإسلام.

وقد تحدثت بعض المصادر المهمة عن طرق شراء وبيع الجواري في الأسواق بطرق دقيقة جدًا، منها ما كان لا أخلاقيًا وتعامل في النّساء على أنّهن سلع مبتذلة ((فعن صفة بيع الجواري في صنعاء، كان يجري عرف في السوق أن تبخر الجارية وتطيّب وتعدّل، ويشد وسطها بمئزر، ويأخذ المنادي بيدها ويدور بها في السوق، وينادي عليها ويحضر التجار الفجّار يقلبون يديها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرتها وصدرها ونهدها. ويقلب ظهرها ويشبر عجزها، ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود، وإن كان عليها ثياب خلعها وقلب وأبصر وفي آخر الأمر يقلب فرجها وجحرها معاينة من غير ستر ولا حجاب. فإذا قلب ورضي اشترى الجارية)).(ابن المجاور , ص١٤٥.)

وقد اشترى ابن بطوطة جارية ب ٤٠درهما من مدينة أيا سلوق (ابن بطوطة, ج١, ص١٩٤.) دون الإشارة إلى تفاصيل البيع والشّراء السالفة الذكر؛ مما يعني أنّ هذا الوصف يقتصر على منطقة دون الأخرى. وضبط اسمها(أيا سلوق) بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف، مدينة كبيرة قديمة معظّمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنيّة بالحجارة الضخمة، ويكون طول الحجر منها عشر أذرع فما دونها، منحوتة أبدع نحت، والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن، وكان كنيسة للروم ، فلمّا فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا ، وحيطانه من الرخام الملوّن وفرشه الرخام الابيض وهو مسقّف بالرصاص وفيه إحدى عشرة قبّة منوّعة، وفي وسط كل قبّة صهريج ماء، والنهر يتوسطها ، وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس، ودوالي العنب ومعرّشات الياسمين، وله خمسة عشر بابا، وأمير هذه المدينة خضر بك بن السلطان مُحَمَّد بن ايدين، وقد رأه ابن بطوطة عند أبيه ببركي، ثم لقيه بهذه المدينة خارجها فسلّم عليه وهو راكب، فكره ذلك منه، وكان سبب حرمانه لديه، فإنّ عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك، ، واشترى ابن بطوطة بهذه المدينة جارية روميّة بكرا بأربعين دينارا ذهبا. (ابن بطوطة,١٨٩/٢.)

كما لاحظ ابن بطوطة رخص أسعار جواري الصين وغلمانهم(ابن بطوطة، ج٢، ص١٦٢.). كما وردت إشارة إلى رخص أسعار المعلمات في بلاد الهند.(ابن بطوطة , ج٢,ص ٧٨.) بعكس أهل مالي وأيولاتن الذين يرفضون بيع المعلمات.(ابن بطوطة، ج٢، ص٢٠٨.) باعتبار أن مقياس التفاضل مختلف تماما ما بين الجواري المبتذلات والمعلمات المقدرات.

كما يتم اعتبار الجواري سلعًا مهمة تقدر عليها ضريبة جمركية (مكس) حال العبور من منطقة لأخرى، قدرت في خراسان ب(٢٠-٣٠) درهما.(المقدسي، ص٢٦١.)

وامتدت يد الغدر الصليبية لنساء المسلمين أيام نقفور (ت١٩٥هـ /٨١١م)إلى ما يقرب من ٣٥ ألف امرأة.(ابن حوقل ، ص١٦٤.) وتمّ وضع خلخال من الحديد في سيقانهن تعذيبا وألما(ابن جبير، ص٢٨٠.) ومما ورد في أسماء بعض الجواري في اليمن: (بخيتة) و (زاد المال) ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم، فيذكر ابن بطوطة أنه نزل بدار الخطيب بمسجدها الأعظم، وهو عيسى بن علي كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب إحداهن اسمها بخيتة، والأخرى زاد المال ولم يسمع ابن بطوطة هذه الأسماء في بلد سواها. ووصف أكثر أهلها بأن رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم، وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت، يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة، وهذا التشابه كله مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير(وفق وجهة نظر ابن بطوطة).(ابن بطوطة، ١٦٦/١/٢٠٠). كما عرفت جارية ابن بطوطة ب (مرغليظة) الرومية. (ابن بطوطة، ج١، ص١٩٦.)

أربعة عشر: الجنائز والمدافن:

إذا كان في الإسلام إكرام الميّت دفنه، فإن الأمر عكس ذلك تمامًا لدى بعض الشعوب. فإذا توفي أحدهم من الصين، يتمّ دفنه في ذات اليوم من العام القادم. وجرت العادة أن يتم البكاء على الميت ثلاث سنوات، ومن لم يبك يتم ضربه بعصى من الخشب. كما أنهم يزودون الميت بالطعام والشراب في قبره ويستخدمون طريقة العرب في الدفن(التاجر، ص٥٠)، كعرف سابق ومتوارث. ويتقيد البكاء بالرجال دون النساء على الميت كما هو الحال في بلاد الصقالبة (ابن فضلان، ص١٧٠)

وإذا مات ملك سرنديب من بلاد الهند , يتم إحراقه وإحراق نسائه معه وأحيانا يكون الأمر اختياريا فلهن حق الرفض (التاجر، ص٥٥) وقيل إذا مات الملك ببلاد سرنديب صيّر على عجله قريبا من الأرض، وعلّق في مؤخرها مستلقيا على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذا فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا، وأخذ روحه ملك الموت، فلا تغترّوا بالحياة بعده، وكلام نحو هذا ثلاثة أيام، ثم يهيّأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به، ثم يرمي برماده في الريح ، والهند كلّهم يحرقون موتاهم بالنار.(رحلة السيرافي ,٤٦/١). وقيل إنهم كانوا أقزامًا. (ابن خرداذبة ، ص٦٤.) الأمر الذي ساعد على جرّهم في تلك

العجلة. وشعب مدينة دربند يأكلون لحم الميتة من النساء ((فإذا توفيت امرأة سلّموها إلى رجال تحت الأرض يخرجون عظامها ويطعمون لحمها))(الغرناطي، ص٦٤).

((ومن عادات دفن النساء في الهند تزيين المرأة، والناس يتبعونها وهي راكبة والأطبال والأبواق بين يديها فيحرقونها، وقيل إن كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته حرقت نفسها معه. ويعتبر ذلك وفاء للزوج وشرفًا لأهل بيتها، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها. ومن أرادت حرق نفسها أقامت ثلاثة أيام في غناء ولهو ولعب وأكل وشرب يودعن الدّنيا، وتأتي النساء لتوديعهن ثم تركب الواحدة منهن الفرس وهي متزينة متعطرة، وفي يمينها جوزه النارجيل وفي يسارها مرآة تنظر فيها إلى وجهها، والناس يقولون لها (موصين ومودعين) أبلغي أبي وأمي وأخي وزوجتي السلام وهي تقول نعم وتضحك. ثم يسار بها إلى مكان مظلم وسط الغابة ثم يتم حرقهن بصورة بشعة)). فيا لعدل الاسلام وسماحته وتكريمه للإنسان حيًّا وميّتًا. وللمسلمين عادات حسنة في أحوال الجنائز مما يقدم الموعظة والعبرة ومن ذلك أنّ لأهل دمشق في اتباع الجنائز طريقة وصفها راحلتنا بالعجيبة، حيث يسير الناس أمام الجنازة مع تلاوة القرآن، والكلمات الباكية المحزنة التي تثير الإحساس بالبكاء وشجونه، ثم يتم الأذان والدعاء للميت ووصف الميت بأحسن الصفات ثم يصلون عليه ويتم دفنه. (ابن بطوطة، ج١، ص٦٥.)

(وفي مدينة أصفهان فإن الرجل منهم إن مات ابنه أو زوجته يتخذ له تربة من بعض بيوت داره، ويدفنه هناك ويفرش البيت بالحصر والبسط، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه، ويصنع للبيت بابًا إلى ناحية الزقاق وشباكًا حديديًّا فيدخل منه القراء يقرؤون بالأصوات الحسان، ولجمال قرأتهم للقرآن قيل، وليس في معمور الأرض أحسن أصواتاً بالقرآن من أهل شيراز(مدينة فارس العظمى، وهي مدينة جليلة عظيمة ينزلها الولاة، ولها سعة حتى أنه ليس لها منزل إلا وفيه لصاحبه بستان، فيه جميع الثمار والرياحين والبقول، وكل ما يكون في البساتين، وشرب أهلها من عيون تجري في أنهار تأتي من جبال يسقط عليها الثلج.(اليعقوبي , ١٤٢٢هـ,٢٠٢/١)، ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها، فكأن الميت لم يبرح. وذكر أنهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه.) (ابن بطوطة، ج١، ص١٣٥.)

وفي مدينة صنوب(وضبط اسمها بفتح الصاد وضمّ النون وآخره باء، وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهي جهة الشرق، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان پادشاه.ولما استوذن لابن بطوطة دخل البلد، ونزل بزاوية عزّ الدين أخي جلبي، وهي خارج باب البحر، ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل في البحر، كمينا سبتة ، فيه البساتين والمزارع والمياه، وأكثر فواكهه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود إليه، وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمّة المسلمين (ابن بطوطة ,٢٠٨/٢) حضر ابن بطوطة جنازة (أم الأمير إبراهيم) ((وشاهد ابنها وقد خرج على قدميه كاشفًا شعره، وكذلك الأمراء والمماليك وثيابهم مقلوبة. وأما القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤوسهم، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضا عن العمائم، وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم.)) (ابن بطوطة، ج١، ص٢٠٥.)

وهذه جهان والدة السلطان شمس الدين ملك "دهلى" في بلاد الهند، عرفت بالفضل والثناء وكثرة الصدقات والأوقاف كالزوايا حيث وفرت فيها الأطعمة والأشربة، وكان ابن بطوطة ممن تمتع بملذات الطعام من خيراتها في قلال من الذهب عرفت ب السبني. (العاملي ,١/١٣١.)

وفي مدينة فيروزان من قرى أصبهان ثم من ناحية النخان أحسن القرى وأطيبها؛ هواء وماء كثيرة الفواكه المعجبة، وفيها جامع طيب (الحموي، ج٥, ١٣٤٨.) أبدى ابن بطوطة تعجبه من مشهد أشبه بالفرح وليس الترح((فقيل إن أهلها كانوا يشيعون جنائزهم وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل وأتبعوها بالمزامير والمغنيين بأنواع الأغاني المطربة)).(ابن بطوطة، ج١، ص ١٢٤.)

خامس عشرة: ممارسات سلبية.

لم تكن القيم والأخلاق والأعراف بل والدين لتحدَّ من بعض الممارسات السئية لملامح الحياة الاجتماعية لظاهرة الزنا. فها هو الرّجل يفترش النّساء على جانب الطريق لبعض أفراد البجنك التركية المحاذية للصين شرقا(أبي دلف، ص ٤١.). كما وقد ساد زواج الرجل بأخته، أو بنته عند قبيلة الجكل التركية أيضًا. وكذلك أفراد الخطلخ الأتراك يتزوجون من أخواتهم. (أبي دلف، ص٤٢.)

أما قبيلة الخرلخ التركيّة أيضًا والمجاورة لحدود الصين فيمارسون الزّنا ويربطونه بمقامرة نسائهم، وبناتهم، ومحارمهم. مع امتيازهم بندرة الغيرة لدرجة، أنّ الزوجة تنظر في القوافل التجارية وتختار زوجًا بديلًا ليعاشرها مدة من الزّمن أمام زوجها وفي بيتها(أبي دلف، ، ص٤٨-٤٩.).وتتشابه هذه الفكرة مع عادة سادت لدى بعض أفراد قبائل السرو من جنوب الجزيرة العربية. حيث إن بعض النساء عند سفر زوجها تبيت عند مخلفها أو عشيقها لحين عودة مسافرها(ابن المجاور، ص٢٦.). والأسوأ أيضًا ما ساد عند البيهمة من جنوب العربية أيضًا من إكرام الضيف بالسماح للزوجة بالمبيت معه. ((فتجئ المرأة فتنام في حضن الضيف إلى الصباح بلا خوف ولا حذر ويقوم الصبح كلٌّ يغدو إلى شغله. فإذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له عمرو بإيجاب القول دخل زيد إلى بنت عمرو واستفضها وبات معها طول ليلته، فإذا صبح خرج وترك نعليه في بيت بنت عمرو فيعلم عمرو أنه رضي بها فحينئذ يعقد له عقد النكاح. وإن لبس حذاءه وغدا علم عمرو أن زيدا لم يرضَ ببنته. وهذا في أجاويد هؤلاء القوم)). (ابن المجاور، ص٥٤.)

ويذكر ابن بطوطة بعض مشاهداته عن تلك المرأة التي أجبرت الشيخ جمال الدين الساوي على حلق لحيته وحاجبيه ليظهر لها بصورة بشعة وقبيحة، بعد أن احتالت عليه بالقدوم إلى منزلها رغبة به وإغواء له، ليجدها طريقة للخلاص من كيدها. (ابن بطوطة، ج١، ص١٧ -١٨.) وتفصيل ذلك أن روى أن السبب كان الذي يدعو الشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة(مدينة طيبة كثيرة الخيرات والثمرات والمياه والأشجار، في وهدة من الأرض. وكانت في قديم الزمان على ساحل بحيرة غاضت عند مولد النبي، ﷺ، وموضع البحيرة زرعوه شعيراً. وأهل ساوه مخصوصون بحسن الصورة واستقامة الطبع، ومعرفة وزن الشعر وعلم الغناء، وذلك يترشح منهم حتى من نسائهم وصبيانهم. (القزويني ,١/٣٨٦) وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعياها أمره

دست له عجوزا تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم، فلما مر بها قالت له يا سيدي أتحسن القراءة؟ قال: نعم ،قالت: له الكتاب وجهه إليّ ولدي وأحب أن تقرأه علي، فقال: لها نعم فلما فتح الكتاب، قالت: له يا سيدي إن لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب، وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به، وأدخلنه إلى الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى أن لا خلاص له قال لها إني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته إياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه، وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. (ابن بطوطة ,٢٣/١)

ولعل الميل القلبي لدى أوزبك خان السلطان تجاه زوجته الخاتون (طيطغلي) قد دفعه للتقرب إليها والمبيت معها في أغلب لياليه بدافع أنّه يشعر أنها بكرًا في كل عشية.(ابن بطوطة، ج١، ص٢١٥.) ووصف ابن بطوطة جواري ونساء الكنائس في القسطنطينية والتي تحتوي على ٥٠٠بكرًا برؤوس محلوقة موصوفات بالجمال والحسن ،وأثر العبادة والطهارة لديهن صوت حميل في تلاوة الإنجيل ..... (ابن بطوطة، ج١، ص ٢٢٨.)

ملحق خارطة رحلة ابن بطوطة:

الخاتمة:

توصل هذا البحث لجملة مهمة من النتائج منها:

١- الاهتمام بإظهار ملامح الحياة الاجتماعية من خلال رحلة مهمة لشاهد عيان وهو رحّالتنا الشهير ابن بطوطة. والتي تكاد تكون من أكثر الرحلات وصفًا دقيقًا لصورة الحياة الاجتماعية ولمختلف المناطق عبر خط سير رحلته الطويلة.

٢- قدمت هذه الرحلة وصفًا لأنماط مختلفة دون حرج في العرض، منها الحديث عن النساء ومهورهن وصفتهن وبيعهن وشرائهن وتجارتهن وزينتهن.

٣- اهتم ابن بطوطة بذكر عادات قد تخالف عاداتنا وتقاليدنا الإسلامية، في أسلوب تعجب واضح؛ كذكر بعض النساء العراة، وكممارسة الزّنا على أنّه حقلٌ مشروعٌ لعدد كبير من القبائل المتاخمة لحدود الصين.

٤- عرض ابن بطوطة نماذج حياتية خاصة به مع النساء. من خلال حديثه عن الزواج بإحدى الجواري التي حتمت عليها ظروف قبيلتها عدم السماح بالسفر معه، وبأنّه أنجب منها طفلة. ثم حديثه عن زواج المتعة لديه.

٥- أظهرت الرحلة أنّ المرأة المسلمة تتمتع بمزايا حفظ الحقوق، والإكرام لها. من خلال عفتها وإظهارها بمظهر حسن لائق وليس سلعة مادية تباع هنا وهناك.

٦- وصف ابن بطوطة صورًا للجواري، وطرق بيعهن في عدد من الأسواق بطرق بشعة تتنافى مع معتقداتنا الإسلامية البحتة.

٧- تمثل رحلة ابن بطوطة كنزًا وفيًا لمادة علمية تاريخية أدبيّة، تحتاج إلى بذل المزيد للتعرف على كافّة الجوانب المضيئة، لمحطة مهمّة في الحقب التاريخية المتتالية لما فيها من قيم حضارية كبرى.

٨- كان للمرأة دورها في المشاركة في المناسبات الاجتماعية، كالأعياد والزواج، والعودة من الحج، والمواليد الجدد. وقد شاركت المرأة أيضاً في حفلات الختان، وشاركت كذلك الاحتفالات السياسية، وقدمت هداياها في كل المناسبات. واعتبرت مشاركة المرأة هذه من عاداتها الخاصة، وجزءاً من حياتها، كدليل على ما وهبه الإسلام للمرأة من حقوق كما ورد في طيّات البحث.

وأخيرا لابد أن تعي المرأة أن دعاوى تحرير المرأة قامت في مجتمعات غريبة لا تقيم لها وزناً ولا ترفع لها قدرًا، وكعادة كل دعوة خلت من التأصيل، وأسّست بنيانها على خطأ، وقام بإشعال فتيلها، وإذكاء نارها أناس همهم إشباع شهواتهم. وكانت النتيجة أن باتت المرأة جسداً بلا روح كما لاحظنا ذلك في نساء الهند والصين، فباتت كيانًا متحررًا من مشاعر الفطرة، وانطلقت بلا تعقل ولا تفكر إلى مسالك أوردتها المهالك، وصارت سلعة تباع وتشترى، وتؤجر بأنوثتها باسم التقدم.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم:

أولا المصادر:

-ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، روجعت وصححت على عدة نسخ صحيحة بمعرفة لجنة من الأدباء، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بمصر , ١٣٧٧هـ, ١٩٥٨م.

-البيروني، أبوريحان مُحَمَّد بن أحمد (ت٤٤٠هـ\١٠٤٨م)، الجماهر في معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.

- التاجر، سليمان (منسوب)، عجائب الدنيا وقياس البلدان (ألفه سنة ٢٣٧هـ-٨٥١م)، دراسة وتحقيق سيف شاهين المريخي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين , ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

-التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ\٩٩٤م)، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨، ج٤.

-الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب البلدان، نشره مع مقدمة وتعليقات صالح العلي، مطبعة الحكومة، بغداد, ١٩٧٠م.

-الجاحظ, عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة.

المحقق: حسن حسني عبد الوهاب التونسي, مكتبة الخانجي – القاهرة / مصر,الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

-ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

- ابن الجوزي، ذم الهوى، ص ٦٣٢، سبط ابن الجوزي المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ\١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدن,١٩٥٢م، ج٨، ق١.

-ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن علي بن مُحَمَّد (ت ٥٩٧هـ \ ١٢٠٠م)، الأذكياء، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت , ١٩٨٠م، ط٤.

-ابن الجوزي، ابو الفرج عبدالرحمن علي بن مُحَمَّد (ت ٥٩٧هـ \ ١٢٠٠م)، صفة الصفوة، دار المعرفة للطباعة ,ج٢،

-الجوهري ,أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية,تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار, دار العلم للملايين – بيروت,الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

-الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر (ت٦٢٢هـ \١٢٢٥م)، أخبار الدولة السلجوقية أو (زبدة التواريخ)، صححه: مُحَمَّد إقبال، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت , ١٩٨٤م.

-الحِميرى, أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المنعم (المتوفى: ٩٠٠هـ), الروض المعطار.

تحقيق إحسان عباس, مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج,الطبعة: الثانية، ١٩٨٠ م

-الحموي, أحمد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي ثم الحموي، (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير, المكتبة العلمية – بيروت.

- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ\٢٢٨م)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

-ابن خرداذبة، ابي القاسم عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه مُحَمَّد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ , ١٤٠٨هـ\ ١٩٨٨م،.

-خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ)، سفرنامة رحلة ناصر خسرو القبادياني، ترجمة وتقديم احمد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض.

-الخطيب البغدادي،أبو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ\ ١٠٧٠م) ,تاريخ بغداد أو مدينة السلام , تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا , منشورات علي بيضون , دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٩٧م.

-ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد (ت ٦٨١هـ\ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت, ١٩٧٧م، ج٤، ١٥٨؛

-ابن خلدون ,عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،المحقق: خليل شحادة, دار الفكر، بيروت,الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

- الخزرجي، أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي، (المتوفي اواخر القرن الرابع الهجري)، الرسالة الأولى، دراسة وتحقيق مريزن عسيري، جامعة ام القرى، مركز إحياء التراث الاسلامي، مكة المكرمة , ١٤١٦هـ\١٩٩٥م.

-الزَّبيدي , محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، (المتوفى: ١٢٠٥هـ), تاج العروس من جواهر القاموس ,دار الهداية,٢٦٧/٣١.

الذهبي, شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ).

-سير أعلام النبلاء,المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة,الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

-ابن سيده, أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ), المخصص, المحقق: خليل إبراهم جفال, دار إحياء التراث العربي – بيروت ,الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

-الشابستي، علي بن مُحَمَّد، الديارات؛ تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦.

- أبوشجاع الروذرائي , مُحَمَّد بن الحسين بن ظهير الدين , ذيل تجارب الأمم , تحقيق امدوز , مصر ١٩١٦م .

-الغرناطي، أبو حامد مُحَمَّد الغرناطي (ت ٥٦٥هـ)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، حررها وقدم لها قاسم وهبة، دار السويدي للنشر، أبوظبي، ط١ , ٢٠٠٣م.

-ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، (ت ٣٠٩هـ-٩٢١م)، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، حققها وعلق عليها وقدم لها سامي الدهان، مديرية إحياء التراث، ط٢.

-الفيروزآبادي ,مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب ,القاموس المحيط,٢,١٩٢٩/٣٢٠.

-ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحها وضبطها أوسكر لوفغرين، طبعت بمطبعة بريل في ليدن , ١٩٥١م.

- القزويني ,زكريا بن مُحَمَّد بن محمود (المتوفى: ٦٨٢هـ), آثار البلاد وأخبار العباد ,دار صادر – بيروت.

- ابن كثير، الإمام الحافظ المؤرخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ\ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، دار الحديثة، القاهرة , ١٩٩٤م.

-المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٣٨٠هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علق عليه ووضع حواشيه مُحَمَّد أمين الضناوي، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

-المنجم: إسحاق بن الحسين (المتوفى: ق ٤هـ), آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان

, عالم الكتب، بيروت,الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ.

-اليعقوبي, أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (المتوفى: بعد ٢٩٢هـ)

,البلدان, دار الكتب العلمية، بيروت,الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

ثانيا المراجع:

إبراهيم مصطفى وآخرون (أحمد الزيات / حامد عبد القادر / مُحَمَّد النجار) (المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.

-بيهم، مُحَمَّد جميل، المرأة في حضارة العرب، دار النشر للجامعيين ,١٩٦٢م.

-جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م,

-جواد، مصطفى، سيدات البلاط العباسي، دار الفكر، بيروت , ١٩٥٠م.

- دوزي , رينهارت , تكملة المعاجم العربية , ترجمة النعيمي , وزارة الثقافة والفنون العربية , ١٩٧٨م, ٢٠٤/٤.

-شوقي، ضيف , العصر العباسي الأول ,دار المعارف , مصر ط٢.

-عباس، صالح مهدي، أثر المرأة البغدادية في الحركة العلمية، مركز احياء التراث، بغداد ١٩٨٨م.

-العلي، زكية , التزين والحلي عند المرأة في العصر العباسي , منشورات الإعلام , العراق , لغداد ,١٩٧٦م.

-كُرْد عَلي (المتوفى: ١٣٧٢هـ),مُحَمَّد بن عبد الرزاق بن محمَّد, خطط الشام, مكتبة النوري، دمشق,الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

-وِل ديورَانت , ويليام جيمس ديورَانت (المتوفى: ١٩٨١ م) ,قصة الحضارة,تقديم محيي الدّين صَابر,ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرون, دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس, ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م,